كلود أبو شقرا

نساء عربيّات



نساء عربيات

كلود أبي شقرا

شركة المطبوعات



للتوزيع والنشر

بناية الوهاد ـ شارع جان ـ دارك
ص.ب. ٨٣٧٥
بيروت ـ لبنان

هاتف: ٣٤٤٢٣٦ - ٣٤٥٤٦٠ / ٢ - ٣٥٠٧٢١
فاكس: ٠٧٥٢٢١٠٧- ٩- ٣٥٧ / ٩٦١١-٦٠٢٠٢٩
تلكس: ٢٢٦٦١

الطبعة الاولى ١٩٩٥

تصميم الغلاف : عباس مكي

المقدمة

منذ بداية العصور، تمتعت المرأة بمكانة مرموقة، ولعبت دوراً «أساسياً» سواء في الحياة الاجتماعية او في الحياة السياسية، أو في الحياة الأدبية... وكانت في معظم هذه الأمور، مجلية وصاحبة مواقف بارزة، صنعت أمجاداً وبنت صروحاً فكرية واجتماعية وسياسية ما تزال الى اليوم خالدة في التاريخ.

هذا الكتاب، يظهر نماذج من أولئك النساء اللواتي كتبن بمقدرتهنّ وبحسهنّ المرهف وبإبداعهنّ صفحات مجيدة في تاريخ الأدب والسياسة والفن، رددت صداها الأجيال المتعاقبة.

غاية هذا الكتاب، ليس تعداد النساء البارزات في التاريخ العربي، لأنه لا يمكن حصرهن في مؤلف واحد، وإنما إبراز القيمة الحضارية والفكرية والفنية التي تمتعت بها المرأة في المجتمع العربي من خلال نماذج من النساء اللواتي لعبن دوراً بارزاً في الميادين المختلفة، وسجلن مواقف مجيدة كان لها الأثر العميق في التاريخ...

أما الاختيار، فقد تمَّ على أساس مواقف معينة أو إبداع معين تميزت به المرأة في المجتمع العربي، سواء في الشعر او في الأدب او في السياسة او في الملك.. وذلك بهدف تفصيل دور المرأة عبر التاريخ وإبرازها كعنصر فاعل وفعّال منذ العصور القديمة في ميادين شتى..

قد لا يكون الكتاب قدّم جديداً، وخصوصاً أنه استند إلى مراجع معينة، إنما استطاع من خلال نماذج النساء الواردة فيه أن يقدّم صورة وافية وشاملة للمرأة في المجتمع العربي، هذه الصورة وإن تطورت في ما بعد، انما بقيت وتبقى في العمق هي هي مجسدة للمرأة ـ المبدعة، للمرأة ـ الخلاقة، للمرأة ـ الحكيمة التي عرفت على

مرّ الزمان أن تتكيف مع بيئتها ومع العادات والتقاليد، وأن تخضع لقوانين مجتمعها، وفي الوقت نفسه أن تتفوق وتنجح وتشارك الرجل في صنع الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية...

أروى بنت الحارث

من أبرز أولئك النساء اللاتي شهد لهن التاريخ بالجرأة وقوة الكلمة والشجاعة الفائقة أروى بنت الحارث بن عبد المطلب.

وهي صحابية اشتهرت بالفصاحة. عاشت الى زمن معاوية بن أبي سفيان، وكان مقامها في المدينة. اعتبرت من أكثر الوافدات على معاوية بن ابي سفيان قساوة في الخطاب.

دخلت عليه وهي عجوز، وعاتبته على خصومته لابن عمها، وفاخرته ببني هاشم، وفضلتهم على بني أمية. فاعترضها عمرو بن العاص، فعيرته بنسبه، وتكلم مروان فأحمته. عندها تدخل معاوية قائلا لها: «مرحبا بك يا عمة». قالت: «كيف انت يا ابن اخي. لقد كفرت بعدي بالنعمة واسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك من غير دين كان منك ولا من آبائك ولا سابقة في الاسلام، بعد ان كفرتم برسول الله، فأتعس الله منكم الجدود وأصغر منكم الخدود حتى ردَّ الله الحق الى أهله، ولو كره المشركون. وكانت كلمتنا هي العليا ونبينا هو المنصور، فوليتم علينا من بعده، وتحتجون بقرابتكم من رسول الله، ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الامر، فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى، حيث يقول، يا ابن ام القوم إستضعفوني وكادوا يقتلونني ولم يجمع بعد رسول الله لنا شمل ولم يسهل لنا وعر وغايتنا الجنة وغايتكم النار».

عندها تدخل عمرو بن العاص، وأراد إسكاتها فبادرها الى القول بلهجة قاسية ملؤها الغضب:

«أيتها العجوز الضالة، أقصري من قولك وغضي من طرفك. مع ذهاب عقلك، لا يجوز شهادتك وحدك». أجابته بتحدٍ: «وأنت يا إبن النابغة تتكلم وأمك كانت أشهر امرأة تغني. إدعاك خمسة نفر من قريش، فسئلت أمك عنهم، فقالت كلهم أتاني. فانظروا أشبههم به فالحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به». قال لها مروان بن الحكم: «كفى أيتها العجوز الضالة، ساخ بصرك مع ذهاب عقلك فلا تجوز شهادتك. إقصري لما جئت له».

***

نظرت اليه أروى نظرة سخرية وقالت بكل ما أوتيت من ثقة بنفسها ورجاحة في عقلها وفي رأيها: «يا بني، أتتكلم، فأنت والله الى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم. وإنك لشبهه في زرقة عينيك وحمرة شعرك مع قصر قامته وظاهر دمامته. لقد رأيت الحكم ماد القامة، ظاهر الامة سبط الشعر. وما بينكما من قرابة الا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرَّب». ثم التفتت الى معاوية وقالت: «والله ما عزَّ ضني لهؤلاء غيرك، وإن أمك هند للقائلة في يوم أحد (جبل يقع على بعد ميل شمال المدينة) في قتل حمزة رحمه الله:

«نحن جزيناكم بيوم بدر

والحرب يوم الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لي من صبر

أبي وعمي وأخي وصهري

شفيت وحش غليل صدري

شفيت نفسي وقضيت نذري

فشكر وحشي علي عمري

حتى تغيب أعظمي في قبري»

فأجبتها:

«يا بنت رقاع عظيم الكفر

خزيت في بدر وغير بدر

صبحك الله قبيل الفجر

بالهاشميين الطوال الزهر

بكل قطاع حسام يفري

حمزة ليثي وعلي صقري

إذ رام شبيب وأبوك غدري

أعطيت وحشي ضمير الصدر

هتك وحشي حجاب الستر

ما للبغايا بعدها من فخر».

***

جن جنون معاوية، وتطلع بغضب نحو مروان وعمرو وقال لهما معاتبا: «ويلكما، أنتما عرضتماني لها وأسمعتماني ما أكره». ثم قال لها: «يا عمة، إقصدي قصد حاجتك ودعي عنك أساطير النساء». قالت: «تأمر لي بألفي دينار، والفي دينار وألفي دينار».

دهش معاوية لجوابها وسألها:

«ما تصنعين يا عمة بألفي دينار؟» اجابت بحماسة: «أشتري بها عينا خرخارة في أرض خوارة تكون لولد الحارث بن عبد المطلب».

قال لها معاوية: «نعم الموضع وضعتها. ولكن ما تصنعين بألفي دينار الباقيين»؟

أجابت من دون تردد: «أزوج بها فتيان عبد المطلب من أكفائهم».

قال لها: «نعم الموضع وضعتها. وما تصنعين بألفي دينار الآخرين؟» أجابت: «أستعين بها على عسر المدينة وزيارة بيت الله الحرام». قال «نعم الموضع وضعتها، هي لك نعم وكرامة. ثم قال: أما والله لو كان عليٌ ما آمر لك بها».

سكتت أروى برهة، ثم قالت: صدقت، إن عليا أدى الامانة وعمل بأمر الله وأخذ به وأنت ضيعت أمانتك وخنت الله في ماله، فأعطيت مال الله من لا يستحقه، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لاهلها وبينها، فلم تأخذ بها. ودعانا علي الى أخذ حقنا الذي فرض الله لنا، فشغل بحربك عن وضع الأمور مواضعها، وما سألتك مالك شيئا، فتمن به، انما سألتك من حقنا، ولا نرى أخذ شيء غير حقنا. أتذكر عليا فض الله فاك وأجهد بلاءك». ثم علا بكاؤها وقالت:

الا يا عين ويحك أسعدينا

الا وابكي امير المؤمنينا

رزينا خير من ركب المطايا

وفارسها من ركب السفينا

ومن لبس النعال او احتذاها

ومن قرأ المثاني والمئينا

إذا استقبلت وجه ابي حسين

رأيت البدر راع الناظرينا

ولا والله لا أنسى عليا

وحسن صلاته في الراكعينا

افي الشهر الحرام فجعتمونا

بخير الناس طرا أجمعينا».

عندها أمر لها معاوية بستة الاف دينار. وقال لها: «يا عمة انفقي هذه فيما تحبين، فإذا احتجت فاكتبي الى إبن أخيك يحسن صفدك ومعونتك إن شاء الله».

ويروى أيضا أن معاوية قال لها:

«عفا الله عما سلف يا خالة، هات حاجتك». قالت: «ما لي إليك حاجة». وخرجت عنه. فقال معاوية لأصحابه: «والله لو كلمها من في مجلسي جميعا لأجابت كل واحد بغير ما تجيب به الآخر. إن نساء بني هاشم لأفصح من رجال غيرهم».

وبعث لها قبل رحيلها، فأكرمها وعادت الى المدينة، وتوفيت فيها نحو سنة ٥٠ هـ. (٦٧٠م).

***

من شعرها أيضا، قالت ترثي والدها:

«عيني جواد بدمع غير ممنون

إن انهما لا بدمع العين يشفيني

إني نسيت ابا أروى وذكرته

عن غير بغضة ولا هون

ما زال أبيض مكراما لأسرته

رحب المحاسن في خصب وفي لين

من ال عبد مناف إن مهلكه

ولو لقيت رغوب الدهر يعصيني

من الذين متى ما تغشى ناديهم

تلقى الخضارمة الشمّ العرانين».

تعتبر أروى بنت الحارث نموذجا للمرأة العربية المتمتعة بثبات النفس وقوة الارادة، وتأثرها بدينها واجتهادها في المحافظة عليه مهما غلت التضحيات.

لذلك عندما تشعبت الآراء في تلك الأيام وتباينت المذاهب، بقي ثباتها على رأيها شبيهاً بثباتها على دينها. ولم يحولها عنه تحول الزمان وتداول الدول والخلفاء والمذاهب.

المراجع

١ ـ الامويون والخلافة. تأليف الدكتور حسين عطوان. منشورات دار الجيل. بيروت. الطبعة الاولى ١٩٨٦.

٢ ـ العقد الفريد. تأليف شهاب الدين احمد المعروف بإبن عبد ربه الاندلسي. تقديم خليل شرف الدين الجزء الاول. منشورات دار مكتبة الهلال. الطبعة الاولى ١٩٨٦.

٣ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة. الجزء الاول. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٤ ـ الاعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. المجلد الاول. تأليف خير الدين الزركلي. منشورات دار العلم للملايين الطبعة السادسة ١٩٨٤.

٥ ـ المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها. تأليف عبد الله عفيفي. الجزء الثاني. منشورات دار الرائد العربي. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٢

إعتماد الرميكية

شاعرة أندلسية، كانت جارية لرميك بن حجاج، فَنُسِبت اليه. وانتقلت من ثم الى قصر المعتمد بن عباد وعملت في بادىء الأمر في غسل الثياب.

يروى أن المعتمد ركب مرّة في النهر ومعه وزيره، إبن عمّار، وقد زردت الريح النهر. فقال إبن عباد لإبن عمار، أَجِزْ فقال:

صنع الريح في الماء زرد

فأطال إبن عمّار الفكرة، فقالت إمرأة من الغسالات:

أي درع لقتالٍ لو جمد.

فدهش إبن عباد من حُسن ما أتت به، مع عجز إبن عمار، ونظر إليها، فإذا هي حسنة الوجه، فأعجبته وسألها على الفور: أذات زوج أنتِ؟ فقالت: لا، فتزوجها وولدت له أولاده الملوك النجباء وهم: عباد الملقّب بالمأمون، وعبيد الله الملقب بالرشيد ويزيد الملقب بالراضي، والمؤتمن، وبثينة الشاعرة.

كان المعتمد كثيراً ما يأنس بها، ويستظرف نوادرها، ولم تكن لها معرفة بالغناء، انما كانت مليحة الوجه، حسنة الحديث، حلوة النادر، كثيرة الفكاهة، لها في كل ذلك نوادر محكية.

من أخبار إعتماد الرميكية، القصة المشهورة في قولها «ولا يوم الطين»، ذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين، فاشتهت المشي في الطين، فأمر المعتمد، فسُحِقت

أشياء من الطيب، وذُرَّت في ساحة القصر حتى غمّته، ثم نصبت الغرابيل وصُبّ فيها ماء الورد على أخلاط الطيب، وعجنت بالأيدي حتى عادت كالطين، وخاضتها مع جواريها.

يروى أن إعتماد غضبت من المعتمد في أحد الأيام، وأقسمت أنها لم ترَ منه خيراً قط، فذهل المعتمد من كلامها وقال لها: ولا يوم الطين؟

عندها خجلت اعتماد من كلامها واعتذرت، وقد قال المعتمد حول هذا الامر:

يطأن في الطين والاقدام حافية

كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً

أغار يوسف بن تاشفين على اشبيلية، فأسر المعتمد والرميكية وأرسلهما إلى «اغمات» في مراكش، معتقلين، بعدما قتل ولديهما المأمون والراضي. وإزاء هذا الوضع المأساوي قالت له اعتماد:

يا سيّدي، لقد هنّا هنا، فقال:

قالت لقد هُنّا هنا

مولاي أين جاهُنا

قلت لها إلهُنا

صيَّرنا الى هنا.

ويحكى أنها قالت له وقد مرض: «يا سيدي، ما لنا قدرة على مرضاتك في مرضك». ولما قال الوزير إبن عمّار قصيدته اللامية الشهيرة في المعتمد والرميكية، أغرت المعتمد به فقتله.

ويقول مطلع القصيدة:

الا حيِّ بالقرب حيّاً جلالا

أناخوا جمالاً وحازوا جمالا.

وعرِّج بيومين أم القرى

ونم فعسى أن تراها خيالا

وعن الرميكية يقول في القصيدة:

تخيّرتها من بنات الهجان

رميكية ما تساوي عقالا.

وسبب قول إبن عمّار هذه القصيدة أن المعتمد ندَّر به وسخر من قصائده في أبيات مشهورة.

بقيت اعتماد وفيّة للمعتمد، تتحيّن الفرص للتخفيف عنه في أسره. وظلّت على هذه الحال من الوفاء إلى أن توفيت حوالى العام ١٠٩٥م. قبل المعتمد بأيام.

المراجع

١ ـ الاعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. المجلّد الأول. منشورات دار العلم للملايين.

٢ ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تأليف الشيخ أحمد بن محمَّد المقّري التلمساني. الجزء الرابع. منشورات دار صادر.

٣ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الأول. منشورات مؤسسة الرسالة.

أم البنين

الآية الكريمة تقول: «ولهنَّ مثل الذي عليهنَّ بالمعروف وللرجال عليهنَّ درجة».

والمرأة قسيمة الرجل، لها من الحق ما له، وعليها ما عليه، ولا فضل له عليها إلا بما يقوم من قوة الجَلَد وقوة الساعد وإتساع الحيلة. فهو بذلك وليِّها، يحوطها بقوته ويذود عنها بدمه، وينفق عليها من كسب يده. واما في ما سوى ذلك، هما في السراء والضراء على السواء. وكما قَرَن الله بينهما في شؤون الحياة، كذلك قرن بينهما في حسن التصرف وادخار الأجر وإرتقاء أعلى الدرجات في الآخرة. كما كان الرجل يقاسم المرأة أمر العمل وتدبير المنزل، كذلك كانت المرأة تجاذبه شؤون العالم والقرارات الصعبة. ففي ساحات الوغى، وتحت ظلال السيوف، كانت المرأة تسير مع الرجل جنباً الى جنب تروي ظمأه وتضمد جراحه وتثير حميته. وفي أوقات السلم كانت تشارك الرجل في اتخاذ القرارات. وقلما ذكر التاريخ عظيماً من عظماء المسلمين لم يصدر الأحكام ويتخذ المواقف في كثير من المواطن بعيداً عن رأي زوجته او أمه او شقيقته...

فعبد الله بن الزبير كان يستشير أمه أسماء والوليد بن عبد الملك زوجته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان... ويذكر في هذا المجال موقف الوليد السلبي والهجائي من الحجاج بن يوسف عندما نهاه الحجّاج عن استشارة زوجته في سياسة الملك وتدبير الحروب.

كانت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان من ربات الفصاحة والبلاغة والبيان، شهد لها كبار عصرها خصوصاً عندما قارعت بأجوبتها حجة الحجاج بن يوسف وأفحمته بكلام مبين.

كان الحجاج قد وفد على الوليد بن عبد الملك، وهو يتنزه على جواده، ولما رآه ترجَّل وقبَّل يده وراح يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية. ولما سأله الوليد عن غرضه أجابه: دعني يا أمير المؤمنين استكثر من الجهاد، فإن إبن الزبير وإبن الأشعث قد شغلاني عنك.

ولما دخلا الدار، جلس الحجاج قرب الوليد وأطال الجلوس عنده. وبينما هو يحادثه دخلت عليه جارية وأسرّت في أذنه كلاماً، ثم انصرفت:

فقال الوليد للحجاج: «أتدري ما قالت هذه يا أبا محمد؟».

فقال: «لا والله». قال: بعثتها إليّ إبنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول: «ما مجالستك لهذا الإعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة». فأرسلت إليها: إنه الحجاج بن يوسف. راعها الأمر وأرسلت إليّ مجدداً: «والله، لأن يخلو بك ملك الموت أحب إليّ أن يخلو بك الحجاج».

فأجابه الحجاج: «يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تطلعها على سرّك ومكايدة عدوّك».

دخل الوليد على أم البنين، وأخبرها ما دار بينه وبين الحجاج. فقالت له: «يا أمير المؤمنين، حاجتي أن تأمره غدا يأتيني مسلما». فلبى الوليد طلبها وأرسل الى الحجاج ولما أتاها الحجاج، حجبته ولم يزل واقفا ثم قالت له: «إيه يا حجاج. أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك عبد إبن الزبير وإبن الاشعث. اما والله، لولا أن الله علم انك من شرار خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة وقتل إبن ذات النطاقين أول مولود ولد في الإسلام. وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ أوطاره منهن، فإن كنّ ينفرجن عن مثلك فما أحقه بالأخذ عنك، وإن كنّ ينفرجن عن مثله، فغير قابل لقولك. أما والله لقد نقض كساء أمير المؤمنين الطيب عن غدائرهن، بعثك في أعطية اهل الشام، حتى كنت في أضيق من الفرق، قد أظلّتك رماحهم واثخنتك كفاحهم. وحتى كان أمير المؤمنين أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم. فما نجاك الله من عدو أمير المؤمنين إلاّ بحبهم إياه. ولله درّ القائل إذ نظر إليك:

أسد عليَّ وفي الحروب نعامة

ربداء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت الى غزالة في الوغى

بل كان قلبك في مخالب طائر

صدعت غزاله جمعه بعساكر

تركت كتائبه كأمس الدابر.

من ثم طردته. فخرج فوراً ودخل إلى الوليد فقال له: «يا أبا محمد كنت فيه». فقال: «والله يا أمير المؤمنين ما سكَتَتْ حتى كان بطن الأرض أحب إليّ من ظاهرها. فضحك الوليد وقال: «يا أبا محمد إنها بنت عبد العزيز».

***

* كانت أم البنين، مؤمنة فاضلة، تؤدي واجباتها الدينية على الوجه الأكمل. استأذنت مرّة زوجها الوليد في الحج فأذن لها. فكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعا، إن ذكرها أحد منهم أو ذكر أحداً من حاشيتها. ولما قدمت مكة المكرمة تصدى لها الشعراء، وراحوا يتغنون بجمالها ولعل أبرز من قال فيها شعراً كان وضاح اليمن. وإسمه الحقيقي عبد الرحمن بن اسماعيل بن أبي جمد. ووضاح لقب غلب عليه لجماله وبهائه. بلغ الوليد ما قيل في زوجته، فاستدعى وضاح رغبة في قتله، فما كان من أم البنين إلاّ أن طلبت من وضاح المجيء وشجعته على مدح الوليد إنقاذا لحياته فدخل على الوليد وأنشده:

«صبا قلبي ومال اليك ميلا

وأرقني خيالك يا أثيلا

يمانية تلمُّ بنا فتبدي

دقيق محاسن وتكن غيلا

فإنكِ لو رأيتِ الخيل تعدو

سراعاً يتخذن النقع ذيلا

إذا لرأيت فوق الخيل أسداً

تفيد مغانما وتفيت كيلا

إذا سار الوليد بنا وسرنا

الى خيل نلف بهن خيلا

وندخل بالسرور ديار قوم

ونعقب آخرين أذى وويلا»

* * *

أعجب به الوليد وأجزله العطاء. الا أنه سرعان ما علم أن وضاح شبب بزوجته أم البنين فغضب وقرر مجدداً قتله. وعندما سأل إبنه عبد العزيز رأيه قال له: «إن قتلته فضحتني وحققت قوله، وتوهَّم الناس أن بينه وبين أمي ريبة. فأمسك عنه على غيظ وحنق حتى بلغه أنه شبَّب بأخته فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز. فحنق واشتد غيظه، واستدعاه وأمر بقتله.

* * *

عرفت أم البنين بكرم نفسها وأعمالها الخيرية، من أبرز أقوالها: «أف للبخل لو كان قميصا ما لبسته ولو كان طريقاً ما سلكته». وكانت أم البنين تبعث الى نسائها وتجمعهنّ عندها. وكنّ ينصرفن الى الحديث في حين أنها قائمة تصلي. وعندما تنتهي كانت تنضم إليهنّ وتحدثهنّ أحاديث ملؤها البلاغة والحكمة. وكانت تردد عليهن: «أحب حديثكنّ، فإذا أقمت في صلاتي لهوت عنكنّ ونسيتكنّ». وكانت تكسوهنّ بالثياب الحسنة وتعطيهنّ الدنانير. وكانت تقول: «جعل لكل قوم نهمة في

شيء وجعلت نهمتي في البذل والإعطاء والله للصلة والمؤاساة أحب إليّ من الطعام الطيّب على الجوع، ومن الشراب البارد على الظمأ».

ومن أبرز أقوالها أيضا: «وهل ينال الخير إلا باصطناعه. ما حسدت أحداً قط على شيء إلا ان يكون ذا معروف فإني كنت أحب أن أشركه في ذلك».

ذكر ابن عساكر أن أم البنين كانت فيمن حدَّث من النساء. وروى عنها إبراهيم ابن أبي عقيلة.

أما دار أم البنين، فكانت في دمشق قرب طاحونة الثقفيين المعروفة في زمن إبن عساكر بطاحونة القلعة. وكانت لها دار اخرى خارج باب الفراديس على يسرة المار الى المقبرة.

* * *

تعتبر أم البنين نموذجاً عن المرأة المسلمة المتمتعة بكرامة النفس ودقة الوجدان ومصدر الاجلال والاحترام، وخصوصاً حرية الرأي والقول. ولم تكن أم البنين على غرار سيدات عصرها، رهينة البيت أو سجينته، إنما كانت ربته والقائمة بأمره، والمسؤولة عنه. كذلك كانت سيدة المجالس والمحافل تغشاها وتظهر رأيها فيها. فبرزت في ميادين الفكر والفن وفي ميادين الحرب على السواء وكانت حقاً عماد العائلة، ودعامة الحياة العامة، وشاعرة خلاقة وراوية للحديث لا مثيل لها.

المراجع

١ ـ العقد الفريد. تأليف شهاب الدين احمد المعروف بابن عبد ربه. إعداد عصام شعيتو. الجزء الخامس. منشورات مكتبة دار الهلال. الطبعة الاولى ١٩٨٦.

٢ ـ النساء العربيات تأليف كرم البستاني. منشورات دار صادر ودار بيروت. بيروت ١٩٦٤.

٣ ـ المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها. تأليف عبد الله عفيفي. الجزء الثاني منشورات دار الرائد العربي. الطبعة الثانية ١٩٨٢.

٤ ـ كتاب الأغاني. تأليف أبي الفرج الاصبهاني علي بن الحسين. المجلد السادس. منشورات دار إحياء التراث العربي.

٥ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام تاليف عمر رضا كحاله. الجزء الاول. منشورات مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

«أم الخير»

أحدث ظهور الإسلام، ثورة في دنيا العرب، وانقلاباً عظيماً في نظمهم الإجتماعية والثقافية والسياسيّة. والمرأة، بدورها، طوّرت شخصيتها، بعد انضوائها تحت لواءِ الدين الجديد. فعزَّز الإسلام مكانتها، وحرَّرها من القيود الجاهلية التي كانت تكبّلها.

هنا اكتسبت المرأة دوراً مهمّاً إجتماعياً وثقافياً. إذ شاركت في الأحاديث، ورافقت الجيش الإسلامي في غزواته وسراياه، مداوية مؤاسية، كما اشتركت أحياناً في المعارك مقاتلة مستبسلة.

وفي العصر الأموي، برزت المرأة ـ الخطيبة، صاحبة القول النافذ والجرأة النادرة، وكلمة الحق. وبلغت أوجها في عهد معاوية، الى جانب المرأة الشاعرة والأديبة والمغنية.

«أم الخير بنت الحريش البارقية» إسم لمع في سماء العصر الأموي، وشع نوره في العصور التالية وبقي خالداً مقروناً بالفصاحة والبلاغة وحسن البيان والكلمة الجريئة.

إشتهرت «أم الخير» بأنها كانت من صاحبات الحكيم من القول المأثور، ومن الحكمة. لها في كل حادثة أو مناسبة قول ورأي يتناقله الرواة، ويشكل ثقلاً في السياسة وفي شؤون الخلافة.

* * *

كان معاوية، يحترم رأيها ويثني على بلاغتها وعلى صدق كلمتها. فكتب مرَّة

إلى واليه في الكوفة طالباً إليه أن يوفد «أم الخير» إلى قصره. ومما جاء في كتابه: «إعلم إني مجازيك بقولها فيك بالخير خيراً وبالشر شراً».

لما وصل إليه الكتاب، زار الوالي «أم الخير» وأطلعها على مضمونه. فبادرته إلى القول: «أما أنا فغير راغبة عن طاعة ولا معتلّة بكذب. كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدري، تجري مجرى النفس يغلي بها غلي المرجل بحب البلسن يوقد بجزل السمر».

بعدما استأذنها بالانصراف قال لها الوالي: «يا أم الخير، إن معاوية ضمن لي عليه أن يقبل بقولك في الخير خيراً وفي الشر شراً. فانظري كيف تكونين». فقالت: «ياهذا، إنني لأقول فيك غير الحق».

***

لبت «أم الخير» دعوة معاوية. ولما أقبلت عليه، أنزلها مع الحريم ثلاثة أيام، ثم أذن لها في اليوم الرابع، وكان قد جمع في مجلسه الأدباء والشعراء وأصحاب الرأي والبلاغة. ولما دخلت عليه، خاطبته بكلام منمق بليغ لا يخلو من مسحة من المشاعر. فقالت: «السلام عليك يا أمير المؤمنين». فقال: «وعليك السلام. وبالرغم والله منك دعوتني بهذا الإسم». فقالت: «إن بديهة السلطان مدحضة لما يحب علمه». قال «صدقت يا خالة. كيف رأيت مسيرك»؟ قالت: «لم أزل في عافية وسلامة حتى أوفدت إلى ملك جزل وعطاء بذل. فأنا في عيش أنيق عند ملك رفيق».

أراد معاوية أن يستمتع ببلاغة أم الخير وبآرائها في مناسبات مهمة. رحبت أم الخير بالفكرة وقالت له: «إسأل عما بدا لك». قال: «كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر»؟ فالتفتت إليه أم الخير، وأوضحت أن كلامها ذلك اليوم جاء عفوياً تحت تاثير الصدمة، ولم يكن منمقاً. عندها، التفت معاوية إلى أصحابه وقال: «أيكم حفظ كلام أم الخير»؟ قال رجل من القوم: «أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد». قال: «هاته». قال: «نعم. كأني بها، يا أمير المؤمنين، وعليها برد زبيدي كثيف الحاشية، وهي على جمل رمادي تحيط بها وسادة، وبيدها سوط تقول: «يا أيها

الناس، إتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم. إن الله أوضح الحق وأبان الدليل ونوّر السبيل ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة. إلى أين تريدون رحمكم الله؟ أفراراً عن أمير المؤمنين أم فراراً من المؤمنين؟ أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم إرتداداً عن الحق. أما سمعتم الله عز وجلّ يقول:

«ولِنَبْلونَّكم حتى نعْلَم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم». ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت: «اللهم قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمّة القلوب. فاجمع الكلمة على التقوى وآلف القلوب على الهدى وردّ الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله الى الإمام العادل وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني شمس».

دهش معاوية ومجلسه مما سمعوا من بلاغة الكلام ومن قدرة الرجل على حفظه بأدق تفاصيله. فجاء ذلك خير دليل على مدى أهمية أم الخير كخطيبة بليغة، ينتظر كلامها وخطبها الأدباء ورجال الفكر ويحفظونه بأدق تفاصيله ويرددونه بعدما ينسبونه إلى صاحبته إمعاناً في الإضفاء عليه المزيد من العمق والأهمية.

* * *

واضح مما تقدم أن «أم الخير» كانت نافذة الكلمة سديدة الرأي، قوية الحجة، لا تخشى الباطل، تنادي بالحق والحقيقة أينما حلّت من دون مواربة أو تصنع. ففي أثناء هذه الجلسة، وجهت نقداً لاذعاً أزعج معاوية. مع ذلك، لم يقاطعها إنما تركها تنهي كلامها. قالت بجرأة: «قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلّهم ينتهون. صبراً معشر الانصار والمهاجرين. قاتلوا عن بصيرة من ربكم وثبات من دينكم. وكأني بكم لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض. باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، عما قليل ليصبحوا نادمين، حتى تحلّ بهم الندامة فيطلبون الاقالة. إنه والله من ضلّ عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار. والله، أيها الناس، لولا أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود

المنايا على خفض العيش وطيبه. فإلى أين تريدون رحمكم الله عن إبن عم رسول الله صلى الله عليه وسلّم وزوج ابنته، خلق من طينته، وتفرع من نبعته وخصَّه بسره، وجعله باب مدينته، وعلم المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين. فلم يزل كذلك، يؤيده الله عزّ وجلّ بمعونته، ويمضي على سنن استقامته، ها هو مفلق الهام، ومكسر الاصنام، إذ صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر وأفنى أهل أحد، وفرق جمع هوازن (تعني بذلك يوم حنين)...».

أطرق معاوية على أثر هذا الكلام. وكان الحضور في مجلسه ينتظرون منه رداً على أم الخير. وإذا به بعد فترة قصيرة يقول لها: «والله يا أم الخير، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك. قالت: «والله ما يسؤني يا إبن هند أن يجري الله ذلك على يدي من يسعدني الله بشقائه».

على الرغم من عدم رضاه عن بعض ما تفوهت به من كلام، أراد معاوية الإستفادة من مجلسها بطلب المزيد من البلاغة في الكلام. فقال لها: «هيهات يا كثيرة الفضول. ما تقولين في عثمان بن عفان»؟ قالت: «ما عساني أن أقول فيه. إستخلفه الناس وهم عنه راضون، وقتلوه وهم له كارهون». قال لها معاوية: «يا أم الخير. هذا والله أصلك الذي تبنين عليه». أراد معاوية هنا أن يشير إلى أن سوء رأيها في عثمان هو الذي دفعها الى مناصرة علي. أدركت أم الخير مغزى كلامه فبادرته الى القول: «الله يشهد، وكفى بالله شهيداً ما أردت بعثمان نقصاً. كان سبّاقاً الى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة».

قال لها معاوية: «ما تقولين في طلحة بن عبيد الله»؟ قالت: «ما عسى أن أقول في طلحة. إغتيل في مأمنه وأُتي من حيث لم يحذر. وقد وعده رسول الله بالجنّة». قال معاوية: «ما تقولين في الزبير»؟ قالت: «ما عسيت أن أقول في الزبير إبن عمة رسول الله. شهد له رسول الله بالجنة. كان سبّاقاً إلى كل مكرمة في الإسلام».

هنا، توقفت أم الخير عن الكلام، وكان قد مضى على الجلسة الساعات الطوال.

وبكلام منمق بليغ أعربت عن رغبتها في الانصراف قائلة: «إني أسألك بحق الله على معاوية، فإن قريشا تحدّث أنك من أحلمها أن تسعني بفضل حلمك، وأن تعفيني من هذه المسائل، وإمض لما شئت من غيرها».

إزاء رقة كلامها، لم يسع معاوية الرفض فقال لها: «نعم، وكرامة، قد أعفيتك». وردّها مكرّمة إلى بلدها.

* * *

تعتبر «أم الخير» نموذجاً لمكانة المرأة العربية المسلمة في الادب والبلاغة والفصاحة، ولتمتعها بالبراعة في التعبير والرجاحة في التفكير والقوة في الحجة. وهي في كل أقوالها، سواء في الشعر أو في الخطابة تعتمد على قلبها وعلى مشاعرها، لذلك لم تتفوه الا بما تؤمن به، فجاء كلامها صادقاً وخير حكم بين الخير والشر.

هذا الواقع، دفع الكاتب والفيلسوف غوستاف لوبون إلى القول في كتابه «حضارة العرب» عن المرأة المسلمة: «أما نباهة شأن المرأة وسمو مكانها في عصور العرب الزاهية، فما ينبىء به عدد اللواتي إمتزن بنفاذهن في العلوم والآداب من نساء العرب».

المراجع

١ ـ المرأة وأثرها في الحياة العربية، تأليف عبد الحميد فايد. منشورات دار الكتاب اللبناني. مكتبة المدرسة. الطبعة الثانية. ١٩٨٣.

٢ ـ إعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة. الجزء الأول. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٣ ـ المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها. تأليف عبد الله عفيفي. منشورات دار الرائد العربي الجزء الثاني. الطبعة الثانية ١٩٨٢.

بثينة العذرية

بثينة بنت حبا بن ثعلبة العذرية، شاعرة من بني عذرة، من قضاعة. اسم ارتبط بالشفافية الشعرية والصدق في التعبير والاحساس في نظم الأبيات.

بثينة، تحولت على مرّ التاريخ الى رمز للحب العذري، حفظت أشعارها الرقيقة والمتينة النساء في كل زمان ومكان، واستطاعت أن تنتقل من عصر الى عصر وأن تبقى لسان حال الحب الأصيل والشعور المرهف.

اشتهرت بثينة بأخبارها مع جميل بن معمر العذري، وهو من قومها. وكانت منازلهم في وادي القرى. عرفت بجمال وجهها وحسن بيانها وصدق لسانها. عاشت بثينة بين أهلها وقومها، تنظم الشعر وتحفظه وتروي أجمل القصائد في المجالس. وكانت موهبتها الشعرية تتفتق وتكبر مع الوقت، وتنم عن روحها الشفافة وقلبها الدافق بالحياة، مما أضفى على وجهها ملامح نورانية ميزتها عن باقي فتيات عشيرتها. هذا الوجه بالذات، هو الذي اسر جميل، عندما رآه للمرة الأولى في أحد الأعياد. ففي العيد، كانت النساء تتزين عادة، ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال. بين عجقة الفرح والناس، لفته وجه بثينة من دون غيره، وكانت برفقة أختها ام الحسين ونساء من قومها. فاقترب منهن، وتحادث معهن. وكان يسترق النظر الى بثينة. ولم يطل به الأمر حتى لاحظ القوم حب بثينة في نظراته. فخافت النساء واستعجلن الرحيل، قبل أن يستفحل الأمر. حزن جميل للفراق السريع وراح ينشد:

«عجل الفراق وليته لم يعجل

وجرت بوادر دمعك المتهلل

طربا وشاقك ما لقيت ولم تخف

بين الحبيب غداة برقة محول

وعرفت أنك حين رحت ولم يكن

بعد اليقين وليس ذاك بمشكل

لن تستطيع الى بثينة رجعة

بعد التفرق دون عام مقبل»

* * *

لم تكن بثينة بأقل حماسة لجميل منه. فقد وقع في نفسها وأعجبت برقة كلامه. وراحت تتحين المناسبات للقائه مع أخواتها والاستماع الى شعره المرهف. وهكذا، تأجج في قلبيهما الحب، ونزفت روحاهما في الوقت نفسه بالألم المبرح. اذ سرعان ما نما الى أهل عشيرتها حب جميل لها، الأمر الذي اثار فيهم الغضب والغيرة، وراحوا يترصدون تحركاته، وكمنوا له في احدى المرات بينما كان واقفا قرب ناقته الصهباء ينشد بثينة واختها الشعر، فوثبوا عليه وكادوا يقتلوه لولا مقاومته لهم. ذعرت بثينة وعادت أدراجها، بينما أنشد جميل:

«اذا جمع الاثنان جمعا رميتهم

بأركانهاحتى تخلى سبيلها»

فكانت هذه الابيات السبب الأول للمهاجاة بينه وبين عبد الله بن قطبة.

تملك حب جميل في قلب بثينة. فأعطاها دفقا من العاطفة جعلتها تتحمل المخاطر والمشقات لملاقاته وتبادل الشعر معه. وفي احدى المرات، واعدته أن يلتقيا في الوادي القريب. فأتى لوعدها، وراح ينتظر. وصادف أن وصل الى القوم أعرابي، فنزل عند أهلها. فبادرهم الى القول: «رأيت في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متفرقين متوارين في الشجرة. أنا خائف عليكم أن يسلبوا ابلكم». فعرفوا أنه جميل

وصاحباه فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده. ولما لاح الصباح، وكان انتظاره طال، انصرف جميل كئيبا سيء الظن بها وعاد الى أهله. وراحت نساء حيه يسخرن منه ومن ولعه ببثينة ويقلن له: حصلت منها على الباطل والكذب والغدر، وغيرها اولى بوصلك منها كما أن غيرك يحظى بها. فقال في ذلك:

«فأجبتها في القول بعد تستر

حبي بثينة عن وصالك شاغلي

ابثين انك قد ملكت فأسجحي

وخذي بحظك من كريم واصل

فلرب عارضة علينا وصلها

بالجد تخلطه بقول الهازل

لو كان في صدري كقدر قلامة

فضلا وصلتك او اتتك رسائلي

ويقلن إنك قد رضيت بباطل

منها فهل لك في اجتناب الباطل

ولباطل مما احب حديثه

اشهى إلي من البغيض الباذل

ليزلن عنك هواي ثم يصلنني

واذا هويت فما هواي بزائل».

طال الفراق، وأثقل الهجر كاهل بثينة المسجونة بين أهلها وعشيرتها وجميل البعيد الذي لا يقوى على الاقتراب. إلا أن الحب الصادق بينهما جعلهما يتخطيان

حواجز البغض والحقد والغيرة، واستطاعا بعد طول غياب أن يلتقيا، فتعاتبا طويلا، وقالت له بثينة وهي الحافظة اشعاره كلها: ويحك يا جميل أتزعم أنك تهواني وأنت القائل:

«رمى الله في عيني بثينة بالقذى

وفي الغر من انيابها بالقوادح»

فأطرق طويلا يبكي ثم قال: بل أنا القائل:

«الا ليتني أعمى أصم تقودني

بثينة لا يخفى علي كلامها»

علمت امة لبثينة باللقاء، فوشتها الى أبيها وأخيها وقالت لهما:

«ان جميلا عندها الليلة». فأتياها مشتملين على سيفين، فرأياه جالسا يحدثها ويشكو اليها بثه. ثم قال لها: «يا بثينة، أرأيت ودي اياك وشغفي بك الا تجزينيه؟» قالت: «بماذا؟» قال: «بما يكون بين المتحابين» فقالت له: «يا جميل، أهذا تبغي والله لقد كنت عندي بعيدا منه، ولئن عاودت تعريضا بريبة لا رأيت وجهي أبدا». فضحك وقال: «والله ما قلت لك هذا الا لأعلم ما عندك فيه. ولو علمت انك تحبين غيري، ولو رأيت منك مساعدة عليه، لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي ولو اطاعتني نفسي لهجرتك هجرة الابد. او ما سمعت قولي:

«واني لارضى من بثينة بالذي — لو أبصره الواشي لقرت بلابله

بلاوبأن لا أستطيع وبالمنى — وبالامل المرجو قد خاب امله.

وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي — أواخره لا نلتقي واوائله»

ازاء هذا المشهد قال ابوها لاخيها: قم بنا، فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها. فانصرفا وتركاهما.

بقي جميل يقول الشعر في بثينة الى أن شهرها. فضاق أهلها به ذرعا وشكوه الى السلطان.

فأهدر لهم السلطان دمه وأباح قتله. فذهب مشايخ حي بثينة الى ابي جميل، وكان يلقب صباحا، وكان ذا مال وفضل وقدر في أهله. فشكوه اليه وناشدوه أن يكف ابنهم عن التعرض الى ابنتهم. فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع. ثم انصرفوا. فدعا ابنه وناشده الكف عن حبه المجنون الذي يكاد يقتله. أجابه جميل: «الرأي ما رأيت، والقول ما قلت، فهل رأيت قبلي احدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه، او ملك ان يسلي نفسه او استطاع ان يدفع ما قضى عليه، والله لو قدرت ان امحو ذكرها من قلبي او ازيل شخصها عن عيني لفعلت. ولكن لا سبيل الى ذلك، وانما هو بلاء بليت به لحين قد اتيح لي وانا امتنع من طروق هذا الحي والالمام بهم، ولو مت كمدا، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه، وقام وهو يبكي. فبكى أبوه ومن حضر جزعا لما رأوا منه لوعته وبؤسه. بدورها، عانت بثينة الفراق، واشتاقت نفسها الى مشاعر جميل النبيلة تجاهها. الا انها بقيت مسيطرة على عواطفها، لا حيلة لها سوى الانصياع الى تقاليد عشيرتها وأهلها. وفي إحدى الليالي المظلمات، وبينما كانت بثينة تناجي وحدها روح جميل، اذا بالحبيب ينتفض أمامها. فذعرت وسألته كيف استطاع المجيء والحرس حولها. فأبلغها أن وجهته الشام وأنه جاء لوداعها. فقالت له: «اهلكتني والله، وأهلكت نفسك. ويحك، أما تخاف؟» فقال لها: «هذا وجهي الى الشام، إنما جئتك مودعا. فحادثها طويلا ثم ودعها وقال: «يا بثينة ما أرانا نلتقي بعد هذا». وبكيا طويلا. ثم قال لها وهو يبكي:

الا لا أبالي جفوة الناس ما بدا

لنا منك رأي يا بثين جميل

وما لم تطيعي كاشحا او تبدلي

بنا بدلا او كان منك ذهول

وإني وتكراري الزيارة نحوكم

بثين بذي هجر بثين يطول

وإن صباباتي بكم لكثيرة

بثين ونسيانكم لقليلُ

طال غياب جميل في الشام، وطال عذاب بثينة في الوقت نفسه. وفي أحد الايام، وهي في حال انتظار الحبيب، بلغها خبر عودته. فراسلته مع بعض نساء الحي تبثه شوقها اليه ووجدها به، وطلبها للحيلة في لقائه، وواعدته برؤيته في أحد المواضع. ما أن بلغته الرسالة، حتى سار اليها والتقاها وبثها هيامه وشوقه. وفي خضم لوعتها، وشوقها، لم تنتبه بثينة الى ترصد أهلها لتحركاتها، فتبعها ابوها واخوها وهجما عليهما فما كان من جميل الا ان وثب وانتضى سيفه وشد عليهما، فاتقياه بالهرب. عندها ناشدته بثينة الله الا انصرف وقالت له: «إن اقمت فضحتني ولعلّ الحي ان يلحقوك». فأبى وقال: «انا مقيم وامضي أنت وليصنعوا ما احبوا». ولم تزل تناشده حتى انصرف. وقد هجرته وانقطع التلاقي بينهما مدة.

ضاقت الدنيا بجميل، وكان يصعد في الليل على رمل يتنسم الريح من نحو حي بثينة ويقول:

أيا ريح الشمال أما تريني

اهيم وإنني بادي النحول

هبي لي نسمة من ريح بثن

ومني بالهبوب الى جميل

وقولي يا بثينة حسب نفسي

قليلك أو أقل من القليل

واذا طلع النهار انصرف. وكانت بثينة تقول لنساء الحي عندها: «ويحكن اني

لاسمع انين جميل من بعض الغيران». وكانت بثينة تراسله مع بعض النساء وتذكر شوقها اليه ووجدها به وطلبها للحيلة في لقائه. وقيل لها مرة: «هذا جميل لما به. فهل عندك من حيلة تنفسين بها وجده؟ فقالت: «ما عندي أكثر من النظر الا أن القاه في الدار الاخرى او زيارته وهو ميت تحت الثرى».

بقي جميل على هذه الحال هائما في حب بثينة، الى أن حضرته الوفاة. وقبل أن يلفظ أنفاسه الاخيرة قال:

«صدع النعي وما كنا بجميل

وثوى بمصر ثواء غير قفول

ولقد أجر الذيل في وادي القرى

نشوان بين مزارع ونخيل

قومي بثينة فاندبي بعويل

وإبكي خليلك دون كل خليل»

ولما علمت بثينة بوفاة حبيبها، وقعت مغشيا عليها ساعة ثم أفاقت وهي تقول:

«وإن سلوي عن جميل لساعة

من الدهر ما حانت ولا حان حينها

سواء علينا يا جميل بن معمر

إذا مت بأساء الحياة ولينها»

بعد وفاته، اخذت بثينة على نفسها ان لا تكتحل ولا تلبس خمارا مصبوغا ولا ازراراً.

يروى أن بثينة دخلت مرة على عبد الملك بن مروان فقال لها: «والله يا بثينة ما

أرى فيك شيئا لما كان يقول جميل». قالت «يا أمير المؤمنين انه كان يرنو الي بعينين ليستا في رأسك». فما رد عليها عبد الملك بكلمة. وتوفيت بثينة بعد موت جميل بقليل سنة ٨٢ هـ.

المراجع

١ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام الجزء الأول. تأليف عمر رضا كحالة منشورات مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٢ ـ المرأة وأثرها في الحياة العربية. تأليف عبد الحميد فايد. منشورات دار الكتاب اللبناني.

٣ ـ بلاغات النساء. تأليف أبي الفضل طاهر المعروف بإبن طيغور. منشورات دار الحداثة.

٤ ـ الاعلام قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. المجلد الثاني. منشورات دار العلم للملايين الطبعة السادسة ١٩٨٤.

٥ ـ العقد الفريد. تأليف شهاب الدين احمد المعروف بإبن عبد ربه الاندلسي. الجزء السادس. منشورات دار مكتبة الهلال. الطبعة الاولى ١٩٨٦.



مولَّدة من مولَّدات المدينة، تربّت في البصرة، وهي إحدى المُحسنات المتقدمات، الموصوفات بكثرة الرواية. كانت أروى خلق الله للغناء. يقال أنها كانت تغني ثلاثين الف صوت. لها كتاب في الأغاني منسوب الاصوات، يشتمل على إثني عشر الف صوت، وهو دليل على ما بلغت في فنها من سموّ وبعد غاية.

كان كلّ مغنٍ يصف نفسه بالسبق في فنّه والتغرّد في إحسانه إلا بين يدَيْ «بذل». فهناك يتضاءل فخره ويلتبس سبيله حينما تأخذ عليه نواحي الفن، فلا يجد عنها مصرافاً.

كان إبراهيم بن المهدي سيد أهل الغناء يعظمها. فغنت مرة في حضرته في طريقة واحدة، وفي إيقاع واحد، وفي إصبع واحد مائة صوت، لم يعرف إبراهيم منها صوتاً واحداً.

يروى أن شيخ المغنين إسحاق بن إبراهيم الموصلي خالف «بذل» في نسبة صوت غنته في حضرة المأمون، فأمسكت عنه ساعة، ثم غنت ثلاثة أصوات، وسألت إسحاق عن صانعها، فلم يعرفه. فقالت للمأمون: «يا أمير المؤمنين، هي والله لأبيه أخذتها من فيه! فإذا كان هذا لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره؟!» فدهش إسحاق للأمر ولم ينبس ببنت شفة.

كانت لجعفر بن موسى الهادي. وبلغ صيتها الى محمد بن زبيدة. فبعث الى جعفر يسأله أن يريه إياها..فأبى، فزاره محمد في منزله، وسمع شيئاً لم يسمع

مثله. فقال لجعفر: «يا أخي، بعني هذه الجارية». فقال: «يا سيدي، مثلي لا يبيع جارية». فطلب منه محمد أن يهبه إياها، فرفض جعفر. فما كان منه الا أن احتال عليه محمد حتى أسكره، وأمر ببذل، فَحُمِلَت معه الى الحراقة (اي الى السفينة)، وانصرف بها. ولما استفاق جعفر من سكره، سأل عنها، فقيل له أنها أصبحت عند محمد.

عاملها محمد معاملة تفيض بالاعجاب وبالاحترام. وهبها من الجواهر ما لم يملكه أحد قط.

يروي ابو حشيشة عن مآثر بذل فيقول: «كنت عند بذل يوماً» وانا غلام، وذلك في أيام المأمون في بغداد. ولما خرجتُ الى الباب، رأيتُ موكباً، فظننت أن الخليفة يمرّ في ذلك الموضع، فرجعت اليها وقلت: يا ستّي؛ الخليفة يمرّ على بابك؟ فقالت: «أنظروا أي شيء هذا؟ وإذ دخل بوابها قال: علياً بن هشام بالباب. فقالت: وما أصنع به: فقامت اليها وشيكة جاريتها، وكانت ترسلها الى الخليفة وغيره في حوائجها. فأكبّت على رِجْلها، وقالت: الله، الله! أتحجبين علياً بن هشام! فدعت بمنديل طرحته على رأسها ولم تقم اليه. فقال: إني جئتك بأمر سيدي أمير المؤمنين، وذلك أنه سألني عنك. فقالت: إن كنت جئت بأمر الخليفة، فأنا أقوم. فقامت، وقبلت رأسه ويديه، وجلس ساعة وانصرف. ولما خرج، قالت: يا وشيكة، هاتي دواة وقرطاسا» وجعلت تكتب فيه يومها وليلتها حتى كتبت إثني عشر ألف صوت، ثم كتبت اليه: «يا علياً بن هشام، تقول: قد استغنيت عن بذل بأربعة آلاف صوت أخذناها منها، وقد كتبتُ هذا وأنا ضجرة، فكيف لو فرَّغت لك قلبي كله! وختمت الكتاب، وقالت لها: إمضي به اليه.

وبسرعة فائقة، جاء رسوله، وهو خادم أسود يقال له مخارق، بالجواب يقول فيه: يا ستّي، لا والله ما قلت الذي بلغكِ، ولقد كُذِبَ عليّ عندك؛ إنما قلت: لا ينبغي أن يكون في الدنيا غناء أكثر من أربعة آلاف صوت، وقد بعثتِ الي بديوان، لا أؤدي شكركِ عليه ابداً. وبعث اليها عشرة آلاف درهم، وتخوتاً (جمع تخت، وهو وعاء تصان فيه الثياب)، فيها خزّ ووشى ومُلَحٌ، وتختاً مطبقاً فيه الوان الطيب.

كان علي بن هشام يهواها ويكتم ذلك. ولما هجرته مدة كتب اليها هذه الابيات:

تَغيَّرت بَعدِي والزمان مُغَيِّر

وخِستِ بعهدي والملوك تخيسُ

واظهرتِ لي هجراً واخفيتِ بِغضَةً

وقرّبْتِ وَعداً واللسان عبوسُ

ومما شجاني أنني يوم زُرْتُكُمْ

حُجِبتِ وأعدائي لديكِ جلوسُ

وفي دون ذا ما يستدِلُّ به الفتى

على الغدر من أحبابه ويقيسُ

كفرت بدين الحبّ إن طرقت بابكم

وتلك يمين ما علمت، غموسُ

فإن ذهبت نفسي عليكم تشوُّقاً

فقد ذهبت للعاشقين نفوسُ

ولو كان نجمي في السُّعود وَصَلْتُمُ

ولكن نجوم العاشقينَ نُحوس.

وعن غناء بذل، يروي حمّاد بن إسحاق فيقول:

غنت بذل يوماً بين يدي أبي:

إن تَرَيْني ناحلَ البدنِ

فلطول الهم والحزن

كان ما أخشى بواحدتي

ليتَ والله لم يكنِ

فطرب أبي والله طرباً شديداً، وشرب رطلاً، وقال لها: أحسنتِ يا بنتي، والله لا تغنين صوتاً إلا شَرِبتُ عليه رِطلاً.

بعد مقتل الامين، رغب بها القوّاد والكتّاب وبني هاشم، فأبت، وأقامت في موطن الاجلال من الخلفاء والامراء وأعيان الدولة حتى توفيت.

المراجع

١ ـ كتاب الاغاني. تاليف أبي الفرج الاصبهاني. المجلّد السابع عشر. منشورات دار إحياء التراث العربي.

٢ ـ المرأة العربية في جاهليتها وفي إسلامها. تاليف عبد الله عفيفي. الجزء الثالث. منشورات دار الرائد العربي.

بصبص

مولّدة من مولّدات المدينة، تمتعت بجمال الوجه، وبسحر الغناء. تلقت صناعتها عن الطبقة الاولى من المغنين. وكان مولاها يحيى بن نفيس صاحب قيان يعلمهن الغناء والشعر، يقصده الاشراف للتمتع بغناء جواريه. وكانت بصبص أنفسهن وأشدهنّ تقدّماً.

أعجب بها المهدي، وكان ولياً للعهد، فاشتراها بسبعة عشر الف دينار، وقيل أنها ولدت له إبنته عليّة. وعندما كانت في المدينة، كان يأتيها عبد الله بن مصعب حفيد إبن الزبير ليستمع الى غنائها. وكان من أشدّ الناس إعجاباً بها. وفيها يقول، لمّا قدم المنصور الى المدينة وهو في طريقه من الحج:

أراحل أنت أبا جعفر

من قبل أن تسمع من بَصْبَصا؟

هيهات أن تسمع منها إذا

جاوزت العيس بك الاعوصا

فَخُذْ عليها مجلس لذة

ومجلسا من قبل أن تشخصا

أحلف بالله يمينا ومن

يحلف بالله فقد أخلصا

لو أنها تدعو الى بيعة

بايعتها ثم شققت العصا.

لما بلغ المنصور هذا القول، غضب ودعا الشاعر وقال له: «أما أنكم يا آل الزبير قديما ما قادتكم النساء، وشققتم معهن العصا، حتى صرت أنتَ آخر الحمقى، تبايع المغنيات، فدونكم يا آل الزبير هذا المرتع الوخيم».

إجتمع عند بصبص جارية إبن نفيس ذات يوم عبد الله بن مصعب الزبيري، ومحمد بن عيسى الجعفري، من أشراف المدينة، وطلبا منها أن تغني، فغنت واجادت ومما غنت:

قالت وقد أبثثتها وجدي فبحت به

قد كنت قِدماً تحب الستر فاستتر

الست تبصر من حولي فقلت لها

غطّى هواك وما القى على بصري

اعجب الزبير بهذه الابيات وطلب منها المزيد، فبقيت واقفة تغني أروع الشعر ساعات طويلة، الى أن تعب الزبير ومن معه، في حين أنها لم يظهر عليها أي بادرة من بوادر التعب.

إجادة بصبص للغناء لقول الشعر، جعل صيتها ينتشر في شكل واسع، وقال فيها الشعراء القصائد. ومن أبرز هؤلاء هارون بن محمد بن عبد الملك:

بصبص أنت الشمس مزدانة

فإن تبدّلت فانت الهلال

سبحانك اللهم، ما هكذا

فيما مضى كان يكون الجمال

إذا دعت بالعود في مشهد

وعاونت يمنى يديها الشمال

غنت غناء يستفزّ الفتى

حذقاً وزان الحذق منها الدلال

شغف ببصبص محمد بن عيسى الجعفري، وهام بها. وقال مرّه لصديقه: «شغلتني هذه الجارية عن صنعتي وكل امرىءٍ، فاذهب بنا اليها حتى أكاشفها ذلك واستريح» ولما أتياها بادر محمد بن عيسى الجعفري الى القول: «أتغنين:

وكنت أحبكم فسلوت عنكم

عليكم في دياركم السلام.

فقالت: لا، ولكني أغني:

تحمل أهلها عنها فباتوا

على آثار من ذهب العفاء

اطرق محمد بن يحيى ساعة ثم قال لها: «أتغنين:»

وأخضع بالعتبى إذا كنت مذنباً

وإن أذنبت كنت الذي أتنصّل.

قالت: نعم، وأغني أحسن منه.

فإن تقبلوا بالودّ نقبل بمثله

وننزلكم منا بأقرب منزل

حضر أبو السائب المخزومي مجلساً فيه بصبص فغنّت:

قلبي حبيس عليك موقوف

والعين مجرى والدمع مذروف

والنفس في حسرة بغصّتها

قد شفّ أرجاءها التساويف

إن كنتِ بالحسن قد وُصِفتِ لنا

فإنني بالهوى لموصوف

يا حسرتا حسرة أموت بها

إن لم يكن لي لديك معروف

طرب أبو السائب وصاح: «لا عرف الله من لم يعرف لك معروفك». ثم أخذ قناعها من رأسها ووضعه على رأسه وراح يبكي ويلطم ويقول: «واغوثاه! يا الله ما يلقاه العاشقون!».

عن بصبص، وعن مجالسها، تحدّث عثمان بن محمد الليثي: «كنت يوما» في مجلس إبن نفيس، فخرجت الينا جاريته بصبص. وكان في القوم، فتى يحبها، فسألته حاجة، فقام ليأتيها بها، فنسي أن يلبس نعله ومشى حافياً. فقالت: يا فلان، نسيت نعلك فلبسها وقال:

وحبّك ينسيني عن الشيء في يدي

ويشغلني عن كل شيء أحاوله

فأجابته بصبص:

وبي مثل ما تشكوه مني وإنني

لأشفق من حب أراك تزاوله.

المراجع

١ - كتاب الاغاني. تاليف ابي الفرج الاصبهاني. المجلّد الخامس عشر. دار إحياء التراث العربي.

٢ - اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الاول. منشورات مؤسسة الرسالة.

٣ - المرأة العربية في جاهليتها وفي إسلامها. تأليف عبد الله عفيفي. الجزء الثالث. منشورات دار الرائد العربي.

بلقيس ملكة سبأ

ملكة جليلة، تمتعت بعقل راجح ورأي صائب. أشار إليها القرآن الكريم ولم يسمّها. وُلّيت بعهد من أبيها في مأرب، فطمع بها ذو الاذعار عمرو بن أبرهة، صاحب غمدان، فزحف عليها، وهزمها. فرحلت متخفّية بزيّ أعرابي إلى الأحقاف. إلاّ أن رجال «ذي الأذعار» أدركوها، فاستسلمت.

وفي أحد الأيام، بينما كانت جالسة إلى خصمها، أخذت منه الخمرة حتى سكر. عندها تقدمت منه وطعنته بمديّة حتى قتلته. ثم خرجت وطلبت أن يوافيها إلى قصر غمدان ملوك حمير وأتباعهم. ولما اجتمعوا في باحة القصر، قالت لهم: «إن الملك تزوجني، على أني برئت إليه من ملكي في حياته، وأنتم تعلمون أنه لا يولد له. فلما علم مني الخضوع بحقّه والاستسلام لإرادته والطاعة لأمره، فوّض إليّ بعده، ورآني أهلاً له، وأمرني أن آخذ عليكم بذلك عهداً.

قالوا: «سمعاً وطاعة للملك فيما اراد». عندها أدخلتهم المجلس، وكشفت عن الملك القتيل. دهش القوم، وقالوا لها: «أنتِ أولى بالمُلك إذ أرحتنا من هذا الرجس الجائر». وهكذا تولت بلقيس الحكم.

ما إن وطّدت حكمها، حتى جمعت الجيوش، وسارت إلى مكّة فاعتمرت، ثم توجهت إلى أرض بابل وبلغت أرض نهاوند، وأذربيجان، وعادت إلى اليمن، واتخذت مدينة «سبأ» قاعدة لها.

من الأعمال العمرانية التي أنجزتها بلقيس، ورفعت مجدها إلى أبعد مدى، ترميمها سدّ مأرب الذي كان الزمان قد خلخله. وهي صاحبة الصرح الذي ذكره الله

في القرآن في قصة سليمان. وينسب إليها أيضاً قصر بلقيس في مأرب.

ولما ظهر سليمان بن داود، الملك النبي الحكيم، في تدمر، ووصل إلى الحجاز وإلى اليمن، آمن اليمانيون بدعوته إلى الله، عندها جمعت بلقيس أبناء الملوك، وكانت قد خشيت على حكمها وعلى ملكها وقالت لهم: «معاشر حمير، أنتم تلاد الله، اصطفاكم من أول الدهور، وفضلكم بأفضل الأمور. وقد ابتلاكم بهذا النبي سليمان بن داود. فإن آمنتم وشكرتم، زادكم الله نعمة، وإن كفرتم سلبكم النعم وسلّط عليكم النقم». فقالوا: «الأمر إليكِ».

رأت بلقيس من الحكمة أن تهادن الملك سليمان، فخرجت إليه بمائة ألف رجل. ولما التقته، اقتنعت به وآمنت بأقواله، فدخل قومها في دين سليمان أفواجا «أفواجا». وما لبث الملك سليمان أن تزوجها.

وجاء في الاصحاح التاسع من أخبار الأيام الثاني: «أن بلقيس ملكة سبأ سمعت بخبر سليمان فأتت، لتمتحن سليمان بمسائل، إلى أورشليم، بموكب عظيم، وجمال حاملة أطياباً وذهباً بكثرة، وحجارة كريمة. فأتت إلى سليمان، وكلّمته عن كل ما في قلبها، فأخبرها سليمان بكل كلامها، ولم يخف عن سليمان أمر إلا أخبرها به.

ولما رأت ملكة سبأ حكمة سليمان، والبيت الذي بناه، وطعام مائدته، ومجلس عبيده، وموقف خدّامه وملابسهم، وسقائيه وملابسهم، ومُحرقاته التي كان يصعدها في بيت الربّ، لم تبق فيها روح بعد. فقالت للملك: «صحيح الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك، وعن حكمتك، ولم أصدّق كلامهم حتى جئتُ، وأبصرت عيناي، فهوذا لم أخبر بنصف كثرة حكمتك زدت على الخبر الذي سمعته. فطوبى لرجالك، وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً، والسامعين حكمتك. ليكن مباركاً الرب الهك الذي سُرَّ بك، وجعلك على كرسيه ملكاً لتجري حكماً وعدلاً». وأهدت للملك مائة وعشرين وزنة ذهب، وأطياباً كثيرة، وحجارة كريمة. أقامت بلقيس مع زوجها الملك سليمان سبع سنين، كان خلالها يستشيرها في أمور المُلك ويأنس إلى رأيها السديد، وقوة حجتها.

ولما توفيت، دفنها زوجها في تدمر. وكانت قد قضت نحبها بعد مقتل إبنها رحبعم إبن سليمان في أنطاكية بسنة واحدة. فرثاها النعمان بن الأسود بقصيدة طويلة يقول مطلعها:

أخرج الموت من ذرى قصر بينو

ن هماماً على الجماد يدور

حمير الخير قد رأيتك عصراً

ذا بهاء من قبل تقضي الأمور

فأراني إذا ذكرت هماماً

ملكاً قد تضمنته القبور.

في عهد الوليد بن عبد الملك، انكشف تابوتها، وعليه كتابة تدلّ على أنها ماتت لإحدى وعشرين سنة خلت من مُلك سليمان، ولما رفع الغطاء، تبيّن انها ما تزال كما هي من دون أي تغيير في جسدها. عندها أمر الوليد بترك التابوت في مكانه، وأن يبنى عليه بالصخر.

المراجع

١ ـ الاعلام قاموس تراجم، لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. المجلّد الثاني. منشورات دار العلم للملايين.

٢ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تاليف عمر رضا كحاله. الجزء الاول منشورات مؤسسة الرسالة

جميلة السلمية

مغنية من أشهر مغنيات العصر الأموي. وهي أصل من أصول الغناء، عنها أخذ معبد، وإبن عائشة، وخبابة، وسلامة، وعقيلة العقيقية.

كانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء؛ وكان معبد يقول: «أصل الغناء جميلة، وفرعه نحن، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين».

سئلت جميلة مرة: «أنّى لك هذا الغناء؟» قالت: »«والله ما هو الهام ولا تعليم، ولكن كان لنا جارٌ، وكنت أسمعه يغني ويضرب بالعود فلا أفهمه، فأخذت تلك النغمات، فبنيت عليها غنائي، فجاءت أجود من تأليف ذلك الغناء، فعلمت والقيت، فسمعني قوالياتي (أو صواحباتي) يوماً وأنا أغني سرّاً ففهمنني ودخلن علي وقلن: قد علمنا، فما تكتمينا. فأقسمن عليّ، فرفعت صوتي وغنيتهنّ بشعر زهير بن أبي سُلمى:

وما ذكرُتك الا هجتِ لي طرباً

إن المحبَّ ببعض الامر معذور

ليس المحبّ بمن إن شطّ غيّره

هجرُ الحبيب وفي الهجران تغيير.

فحينئذ ظهر أمري وشاع ذكري، فقصدني الناس وجلست للتعليم، فكان الجواري يتزاحمن حولي..»

عن جميلة، تحدث أبو خليفة فقال:«كانت جميلة ممن لا يشك في فضيلتها في الغناء، ولم يدَّعِ أحد مقاربتها في ذلك، وكلٌّ مدنيّ ومكّي يشهد لها بالفضل».

وقال جرير:«وفد إبن سرَيج، والغريض، وسعيد بن مسجع ومُسلم بن محرز المدينة، لبعض من وفدوا عليه، فأجمع رأيهم على النزول على جميلة مولاة بهزٍ، فنزلوا عليها. فخرجوا يوماً إلى العقيق متنزهين، فوردوا على معبد وإبن عائشة، فجلسوا اليهما، فتحدثوا ساعة، ثم سأل معبد إبن سريج واصحابه ان يعرضوا عليه فقال إبن عائشة: «إن للقوم أعمالاً كثيرة حسنة ولكِ أيضاً يا أبا عبّاد، فليعمل كل واحد منا صوتاً ساعته ثم يغنّي به. فقال إبن سريج: على شريطة، أن يكون ما نغنّي به من الشّعر ما حكّمت فيه إمرأة. فأجمع رأيهم على الإجتماع في منزل جميلة من غد. وغنّى إبن سريج، ومعبد، وإبن مسجح، وإبن عائشة، وإبن مُحرز، والغريض. عندها قالت جميلة: «كلكم محسن وكلكم مجيد في معناه ومذهبه. ثم سألوها جميعاً أن تغنيهم لحناً كما غنوا؛ فغنتهم بيتاً لإمرىء القيس:

خليليَّ مُرَّا بي على أم جندب

أَقَضِّ لبانات الفؤاد المعذّب

ليالي لا تبلى نصيحةٌ بيننا

لياليَ حَلّوا بالسّتار فغُرَّبِ

فما سمع السامعون بشيء أحسن من ذلك».

وتحدث أبو عباد عن جميلة بدوره فقال: «أتيت جميلة يوماً وكان لي موعد، ظننت أنّي سبقت الناس إليها، فإذا مجلسها غاصّ؛ فسألتها أن تعلّمني شيئاً، فقالت لي: إن غيرك قد سبقك ولا يجمل تقديمك على مَن سواك. وبينا نحن كذلك، أقبل عبد الله بن جعفر، فجلس في صدر المجلس. فأشارت إلى من عندها بالانصراف، فتفرق الناس، وغمزتني أن لا أبرح. فأقمت. فقال لها إبن جعفر: يا جميلة، قد علمتُ ما آليتِ على نفسك ألا تغني أحداً إلا في منزلك. وبلغني أنّك تغنين بيتين لأمرئ القيس

تجيدين الغناء فيهما... قالت: يا سيدي، نعم! فاندفعت تغني، فغنّت بعودها، فما سمعت منها قبل ذلك ولا بعد إلى أن ماتت مثل ذلك الغناء. فسبّح عبد الله بن جعفر والقوم معه.

حجّت جميلة، فخرج معها عدد من المغنين مشيعين حتى وافوا مكّة. ورجع معها عدد من الرجال المشهورين الحذاق بالغناء، ومن النساء المغنيات. وقال أهل المدينة أنهم ما رأوا مثل ذلك الجمع سفراً طيباً وحسناً وملاحة. فدخلت جميلة مكّة وما بالحجاز مغنٍ حاذق ولا مغنية إلا وهو معها، وجماعة من الاشراف وغيرهم من الرجال والنساء. وخرج أبناء أهل مكّة من الرجال والنساء ينظرون الى جمعها وحسن هيئتها. فلما قضت حجها، سألها المكّيون أن تجعل لهم مجلساً، فقالت: للغناء أم للحديث؟ قالوا: لهما جميعاً. قالت: ما كنت لأخلط جداً بهزل. وأبت أن تجلس للغناء.

ولما مضى على قدومها عشرة أيام، جلست للغناء فقالت لعمر بن أبي ربيعة: إني جالسة لك ولأصحابك، وإذا شئت فعد الناس لذلك اليوم. فغصّت الدار بالاشراف من الرجال والنساء، فابتدأت جميلة، وغنت صوتاً بشعر عمر:

هيهات من أمة الوهاب منزلنا

إذا حللنا بسيف البحر من عدن...

استحسن القوم الغناء، وضجّوا من حسن ما سمعوا، وقيل إنهم ما سمعوا قط غناءً أحسن من غنائها ذلك الصوت في ذلك اليوم. ودمعت عين عمر حتى جرى الدمع على ثيابه وعلى لحيته.

معظم الالحان التي وضعتها جميلة، تناقلها الناس وتهافتوا عليها واحسنوا غناءها. وقد اجادت الضرب على العود. فكانت نابغة الغناء والتلحين والموسيقى في عصرها. توفيت نحو سنة ٧٤٣م.

المراجع

١ ـ الاعلام قاموس تراجم، لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. المجلّد الثاني. منشورات دار العلم للملايين.

٢ ـ كتاب الأغاني. تأليف أبي الفرج الاصبهاني علي بن الحسين. المجلد الثامن. دار إحياء التراث العربي.

٣ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الاول. منشورات مؤسسة الرسالة.

حبابة

«مغنية من ألحن من رؤي في عصرها، ومن أحسن الناس وجها واكملهم عقلا وأفضلهم أدبا».

هكذا وصفت كتب الادب حبابة جارية يزيد بن عبد الملك، التي اشتهرت برواية الشعر.

حبابة كانت لرجل يعرف بإبن رمانة وقيل: إبن مينا. وهو الذي خرّجها وأدّبها. فأخذت الغناء عن إبن سريج وإبن محرز ومالك ومعبد وجميلة وعزة الميلاء.

إشتراها يزيد بن عبد الملك بأربعة آلاف دينار. في روايتي الطبري والدميري ان سعدة زوجة يزيد بن عبد الملك قالت ليزيد: هل بقي من الدنيا شيء تتمناه؟ قال: نعم حبابة، فأرسلت من اشتراها بأربعة آلاف دينار. فصنعتها وزينتها حتى ذهب عنها كل السفر. فأتت بها يزيد وأجلستها وراء الستار وقالت: أبقي شيء من الدنيا تتمناه؟ قال: ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك؟ فرفعت الستار وقالت: هذه حبابة. فأكرمها وغلبت على عقله، فهام بها هياماً كبيراً، وأصبح لها نفوذ كبير في نفسه.

* * *

كانت حبابة فائقة الجمال، تغنى بها الشعراء، الامر الذي لم يرق ليزيد. فغضب منها. فأرسلت أحد خدمها يرجوه المعذرة. ولما عاد إليها أنشدته:

إلا لا تلمه اليوم أن يتبلّدا

فقد غُلِبَ المحزون أن يتجلّدا

نظرت رجاء بالموقر أن أرى

أكاريس يحتلّون خاخا فمنشدا

فأوفيت في نشر من الارض يافع

وقد تسعفّ الايقاع من كان مقصدا

فلما غنته طرب طربا شديدا، وقال لها: أتأذنين أن أطير؟ قالت: الى من تدع الناس؟ قال: إليك. فغنته حبابة أيضاً:

كريم قريش حين ينسب

والذي أقرّت له بالملك كهلا وأمردا

وليس عطاء كان منه بمانع

وإن جلّ من أضعاف أضعافه غدا

أهان تلاد المال في الحمد إنه

إمام هدى يجري على ما تعوّدا

تردّى بمجد من أبيه وأمه

وقد أورثا بنيان مجد مشيّدا

قال لها يزيد: ويحك يا حبابة، ومن من قريش هذا؟ قالت: أنت. قال: ومن يقول هذا الشعر؟ قالت: الاحوص.

* * *

يروى عن حبابة أنها اختلفت يوما وسلاّمة (وهي مغنيّة أيضا) في صوت معبد:

الا حيّ الديار بسعد إني

أحِبُ لحبّ فاطمة الديارا

فبعث يزيد الى معبد فأتى به، فسأل لم بعث اليه؟ فأخبر فقال:

لأيتهما المنزلة عند يزيد؟ فقيل: لحبابة، فلما عرضتا عليه الصوت قضى لحبابة، فقالت سلاّمة: والله ما قضى الا للمنزلة. وإنه ليعلم أن الصواب ما غنّيت. فما كان من حبابة الا أن دخلت معها في تحدّ استمرت اياماً. واستمر معبد يقضي في كل مرة لحبابة. وبعدما بلغ التحدي بين حبابة وسلامة أوجه، أمر يزيد معبد بالغناء، فغنى:

فيا عَزّ إن واش وشى بي عندكم

فلا تكرميه أن تقولي له مهلا.

فاستحسنه يزيد وطرب. وقال معبد في ما بعد: سرّ يزيد لما غنيته، وكساني، ثم لما انصرم مجلسه انصرفت الى منزلي الذي أنزلتُه، فإذا ألطاف سلاّمة قد سبقت ألطاف حبابة، وبعثت اليّ: إني قد عذرتُك في ما فعلت، لكن كان الحق أولى بك. فلم أزل في الطافهما جميعا حتى أذن لي يزيد، فرجعت الى بلدي.

* * *

من أخبار المنافسة بين سلاّمة وحبابة أن يزيد قال لهما مرّة: أيتكما غنّتني ما في نفسي فلها حكمها. فغنّت سلاّمة، فلم تصب ما في نفسه، وغنته حبابة:

حلّق من بني كنانة حولى

بفلسطين يسرعون الركوبا

فأصابت ما في نفسه.

* * *

يروى أن علاقة صداقة وأخوة ربطت بين حبابة وسلاّمة.. يقول المدائني حول هذا الامر: رأى يزيد يوما حبابة جالسة فقال: ما لكِ؟

فقالت: انتظر سلاّمة. قال: أتحبّين أن أهبها لكِ؟ قالت: لا والله، ما أحب أن تهب لي اختي.

* * *

كانت حبابة كريمة النفس، لا تتورع عن إسداء خدمة، خصوصاً الى أهلها وأصحابها، مستخدمة نفوذها عند يزيد.

كذلك، كانت حبابة تزداد إجادة للغناء مع الايام. وكان يزيد يعجب بها اكثر فأكثر مع الوقت. ويروى ان حبابة غنته مرة صوتا لإبن سرّيج:

ما أحسن الجيد من مليكة وال

لبّاتِ إذ زانها ترائبها

فطرب يزيد وقال: «هل رأيت أحدا أطرب مني؟ قالت: نعم، إبن الطيّار معاوية إبن عبد الله بن جعفر، فأرسل بطلبه. ولما قدم أرسلت اليه حبابة: «إنما بعث اليك لكذا وكذا». وأخبرته. فإذا دخلت عليه، فلا تظهرن طربا حتى أغنيه الصوت الذي غنيته. فقال: «سوأة على كبر سنّي؟ دعاه يزيد الى مجلسه. ودعا حبابة فغنّت. ولما انتهت كان معاوية بلغ به الطرب شأوا كبيرا، فأخذ الوسادة ووضعها على رأسه ووقف وراح يدور منتشيا. فضحك يزيد وأمر له بثمانية آلاف دينار.

* * *

ومن أخبار غناء حبابة ايضا، أنها غنت يوما بين يدي يزيد فطرب ثم، قال لها: هل رأيت قطّ أطرب مني؟

قالت: نعم، مولاي الذي باعني.

فغاظه ذلك، فأمر بحمله مقيّدا. ولما وصل أمر بإدخاله اليه، وأمرها، فغنت بغتة:

تِشُطُّ غداً دار جيراننا

وللدّارُ بعد غدٍ أبعدُ

فوثب حتى القى بنفسه على الشمعة فأحرق لحيته. فضحك يزيد وقال: لعمري إن هذا لأطرب الناس! فأمر بحلّ قيوده، وبألف دينار وأعيد الى المدينة.

* * *

كان يزيد بن عبد الملك يأنس الى مغنية طاعنة في السنّ تدعى أم عوف، وكانت أبرز ما تغني:

متى أُحر خائفاً تسرح مطيته

وإن أخِفْ امناً تنبو به الدار

سيروا اليَّ وأرخوا من أعنّتكم

إنّي لكلّ إمرىءٍ من وتره جار

فذكرها يزيد يوما لحبابة، وكانت أخذت عنها بعض مبادىء الغناء وأصوله، فلم تستطع أن تتفوق عليها فغنّت:

أبى القلب الا ام عوف وحبّها

عجوزاً ومن يجيب عجوزاً يفنّد

فضحك وقال: لمن هذا الغناء؟

فقالت: لمالك. فصار إذا جلس معها يطلب منها أن تغنيه صوت مالك في أم عوف.

إعجاب يزيد بموهبة حبابة الفذة، لم يلجمه شيء حتى الموت. ويروى أن وفاتها زاده شوقا لها ولفنِّها الراقي. وأنه بقي يبكيها حتى توفي بدوره.

يقال ان يزيد نزل ببيت رأس بالشام ومعه حبابة فقال: زعموا أنه لا تصفو لأحد عيشة يوم الى الليل الا يكدرها شيء عليه وسأجرب ذلك. ثم طلب من معاونيه أن لا يخبروه بشيء ولا يأتوه بكتاب. وفي أثناء تناوله الطعام مع حبابة، اكلت

رمانة واختنقت بحبة منها فماتت حوالى العام ١٠٥ هجرية. فحزن يزيد حزنا شديداً وبكاها على مدى ثلاثة ايام رافضا دفنها، حتى تغيّرت وانتنت. فعاتبه على ذلك ذووه، أقرباؤه وأصدقاؤه وعابوا عليه فعلته، وقالوا: قد صارت جيفة بين يديك. فأذن لهم في غسلها ودفنها، وأمر فأخرجت، وخرج معها لا يتكلم حتى جلس على قبرها. فلما دفنت قال: أصبحت والله كما قال كثير:

فإن يسلُ عنك القلب أو يدع الصبا

فباليأس نسلو عنك لا بالتجلد

وكل خليل راءني فهو قائل

من أجلك هذا هامة اليوم أو غد

ثم دخل بيته فمكث أربعين يوما ثم هلك.

* * *

روى المدائني أن يزيد إشتاق اليها بعد ثلاثة أيام من دفنها. فقال: لا بد من أن تنبش. فنبشوا وكشف له عن وجهها، وقد تغيّر تغيرا قبيحا فقيل له: «... الا ترى كيف صارت؟ فقال: ما رأيتها قط أحسن منها اليوم. اخرجوها». فجاءه مسلمة وأهله، وأقنعوه بدفنها. فانصرف يزيد وقد كمد كمدا شديداً، ولم يستطع ركوب الحصان من الجزع ولا المشي، فحمل على منبر على رقاب الرجال، ولم يأذن للناس بعد حبابة الا مرة واحدة وقال: فوالله ما أستتم دخول الناس.

وفي رواية اخرى، لما ماتت حبابة ضمَّ يزيد جويرية لها كانت تخدمها، فكانت تحدثه وتؤنسه فبينا هو يوما في قصره، قال لها: هذا الموضع الذي كنا فيه. فغنت:

كفى حزنا للهائم الصب أن يرى

منازل من يهوى معطلة قفرى

فبكى حتى كاد يموت. ولم تزل تلك الجويرية معه يتذكر بها حبابة حتى مات.

المراجع

١ ـ الاعلام قاموس تراجم، لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. المجلّد الثاني. منشورات دار العلم للملايين.

٢ ـ كتاب الأغاني. تأليف أبي الفرج الاصبهاني علي بن الحسين. المجلد الخامس عشر. منشورات دار إحياء التراث العربي.

٣ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة. المجلد الأول.

حفصة الركونية

حفصة بنت الحاج الركونية، شاعرة، اديبة، من ابرز شاعرات غرناطة وأديباتها. امتازت بالجمال الفريد، والحسب، والثراء، والبديهة، وسرعة الخاطر. قال عنها ابن دحية: «حفصة من اشراف غرناطة، رخيمة الشعر، رقيقة النظم والنثر».

ذكرها الملاحي في تاريخه، واثنى على ظرفها، وقوة كلمتها وجمال قصائدها ورقتها، وانشد لها قصيدتها في امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ارتجالا بين يديه:

«يا سيد الناس يا من

يؤمّل الناس رفده

أمْنِنْ عليَّ بطرسٍ

يكون للدهر عُدَّهْ

تخط يمناك فيه:

الحمد لله وحده»

اشارت بذلك الى العلامة التي يكتبها السلطان بخط عريض على رأس كل منشور «الحمد لله وحده».

* * *

اخبار حفصة، وقصائدها الرائعة الشفافة، طرقت ابواب قصر غرناطة، ونفذت

الى اسماع الملك ابو سعيد ابن عبد المؤمن، فاعجب بها... ولما بلغها اعجابه بقصائدها كتبت اليه تهنئه في يوم عيد:

«واتاك من تهواه في

قيد الإنابة والرضى

ليعيد من لذاته

ما قد تصرَّم وانقضى»

ذكر الملاحي في تاريخه، ان امرأة من اعيان اهل غرناطة، سألتها ان تكتب لها قصيدة بخطها، فكتبت اليها:

«يا ربة الحسن، بل يا ربة الكرم

غضي جفونك عما خطه قلمي

تصفحيه بلحظ الود منعمة

لا تحفلي برديء الخط والكلم»

كانت حفصة، شغل الادباء والشعراء الشاغل، يسعون اليها للتباري معها في قول الشعر، وللاستماع الى ما تتفوه به من ظرف الكلمة وجمال الصورة الشعرية. ومن ابرز هؤلاء الشاعر ابو جعفر ابن سعيد، وكان له معها جولات شعرية طويلة، سجل معظمها، ومن بينها:

التقيا مرة في بستان تفوح منه رائحة الطيب ونضارة النعيم.

فقال لها من وحي المكان:

«ارعى الله ليلا لم يَرُحْ بمذمّمٍ

عشية وارانا بحور مؤمّل

وقد خفقت من نحو نجد اريجة

اذا نفحت هبت بريا القرنفل

وغرد قُمري على الدوح وانثنى

قضيب من الريحان من فوق جدول..»

فأجابته:

«... فلا تحسن الظن الذي انت اهله

فما هو في كل المواطن بالرشد

فما خلت هذا الافق ابدى نجومه

لأمر سوى كيما تكون لنا رصد»

كتب عنها ابن سعيد في «الطالع السعيد». مبديا اعجابه بشخصيتها الفذة وموهبتها الفريدة: «اقسم ما رأيت ولا سمعت بمثل حفصة، ومن بعض ما اجعله دليلا على تصديق عزمي، وبر قسمي، اني كنت يوما في منزلي مع من يحب ان يخلى معه من الأجواد الكرام على راحة سمحت بها غفلات الايام، فلم نشعر الا بالباب يضرب، فخرجت جارية تنظر من الضارب، فوجدت امرأة، فقالت لها: «ما تريدين؟ فقالت: ادفعي لسيدك هذه الرقعة، فجاءت برقعة فيها:

«زائر قد أتى بجيد الغزال

مطلع تحت جنحة للهلال

ما ترى في دخوله بعد اذن

او تراه لعارض في انفصال»

قال: فعلمت انها حفصة، وقمت مبادرا للباب، وقابلتها بما يقابل به من يشفع له حسنه وآدابه، وتفضله بالزيارة دون طلب في وقت الرغبة في الانس به».

الى جانب الكلام الرقيق في الشعر، لحفصة مجموعة من القصائد في الذم والهجاء، تميزت بالقساوة وعنف الكلمة، الامر الذي دفع شعراء عصرها الى الاعجاب بقلمها الطيع. اذ كانت تعرف كيف تستعمله كسلاح لها في الاوقات الحلوة والاوقات المرة. ومن ابرز قصائدها الهجائية، واحدة تذم فيها عبيدها:

«يا رب اني من عبيد على

جمر الغضا ما فيهم من نجيب

اما جهول ابله متعب

او فطن من كيده لا يجيب

* * *

قال عنها ابن الابّار: «كانت اديبة، عالمة، شاعرة». ذكرها ابن فرح صاحب «الحدائق» وانشد لها اشعارا» منها قولها:

«يا وحشتي لا حبتي

يا وحشة متماديا

يا ليلة ودعتهم

يا ليلة «هي ماهية.

وقال عنها ابن سعيد في «المغرب»: «من اهل المئة السادسة. تولّع بها ملك غرناطة وتغير بسببها على ابي جعفر ابن سعيد، حتى ادى تغيره عليه ان قتله». من شعرها:

«سلام يُفتّح في زهره ال

كمام ويُنطق ورق الغصون

على نازح قد ثوى في الحشا

وان كاد تحرم عنه الجفون

فلا تحسبوا البعد يُنسيكم

فذلك والله ما لا يكون»

ومن جميل شعرها ايضا وأرقه:

«لو لم يكن نجما لما كان ناظري

وقد غبت عنه مظلما بعد نوره

سلام على تلك المحاسن من شبح

تناءت بنعماه وطيب سروره».

وقالت أيضا:

اسلوا البارق الخفاق والليل ساكن

اظل باحبابي يذكرني وهنا

لعمري لقد اهدى لقلبي خفقة

وامطرني منهل عارضه الجفنا»

وكتبت الى أبي جعفر مرة:

«رأست فما زال العداة بظلمهم

وعلمهم النامي يقولون لم رأس

وهل منكر ان ساد اهل زمانه

جموح الى العليا حرون عن الدنس».

* * *

توفيت حفصة في اواخر العام ٥٨٦ هـ. في مراكش بعد ان ابدعت مدرسة ادبية، اكسبتها لقب شاعرة الشاعرات واستاذة الشواعر في القرن السادس للهجرة من دون منازع. امتازت بجرأة قصائدها، التي كانت تعكس صورة عصرها ونمط الحياة الاجتماعية والادبية فيه. فذاعت هذه القصائد، وراح الرواة والشعراء والناس يتنورون بها ويتناقلونها باعجاب، خصوصا عندما رأوا فيها تعبيرا واضحا ورائعا عن حياتهم ومشاعرهم.

المراجع

١ ـ المرأة العربية في جاهليتها واسلامها. تأليف عبد الله عفيفي. الجزء الثالث. منشورات دار الرائد اللبناني. الطبعة الثانية ١٩٨٢.

٢ ـ نزهة الجلساء في اشعار النساء. تأليف جلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. منشورات دار المكشوف. الطبعة الاولى ١٩٥٨.

٣ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة بيروت. الجزء الاول. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٤ ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب. تأليف الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني. المجلدات الاول والثالث والرابع. منشورات دار صادر.

٥ ـ المرأة واثرها في الحياة العربية. تأليف عبد الحميد فايد. منشورات دار الكتاب اللبناني. الطبعة الثانية ١٩٨٣.

حمدة بنت زياد العوفي

شاعرة وكاتبة اندلسية من سكان وادي آش، قرب غرناطة. تميزت بالادب الرفيع وبالشعر الرقيق على صيانة واخلاق.

قال صاحب الإحاطة: «إن حمدة، وأختاً لها إسمها زينب كانتا شاعرتين أديبتين من أهل الجمال والمعارف والصون. إلا أن حبّ الادب كان يحملهما على مخالطة أهله مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوق بها». وصفها صاحب الفوات بأنها من المتأدّبات المتصوفات المتغزلات المتعففات. علمت النساء في دار المنصور، وذاع صيتها وعظمت منزلتها، فلقبوها بخنساء المغرب.

عنها قال ابو الحسن ابن سعيد: «إن حمدة شاعرة أديبة من أهل الجمال والمال والمعارف». ذكرها الملاحي وغيره، وروى شعرها أبو القاسم إبن البرّاق.

من عجيب شعرها قولها:

ولما أبى الواشون إلا فراقنا

وما لهم عندي وعندك من ثأر

وشنوا على أسماعنا كل غارة

وقل حُماتي عند ذاك وأنصاري

غزوتهم من مقلتيك وأدمعي

ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

خرجت حمدة مرة الى الوادي مع رفيقاتها. ولمّا نضّت عنها ثيابها وعامت قالت:

أباح الدمع أسراري بوادي

له في الحسن أسرار بوادي

فمن نهر يطوف بكل روض

ومن روض يطوف بكل وادي

ومن بين الظباء مهاة أنس

سبت لبّي وقد ملكت فؤادي

لها الحظّ ترقده لأمر

وذلك الامر يمنعني رقادي

إذا سدلت ذوائبها عليها

رأيت البدر في أفق السواد

كأن الصبح مات له شقيق

فمن حزن تسربل بالحداد.

أحبت حمدة العوفية بلاد الاندلس، وكانت في كل مناسبة تتغنى بطبيعتها الغناء. ومن أبرز قصائدها في هذا المجال:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ

سقاه مُضَاعَف الغيثِ العميم

حللنا دَوْحَهُ فَحَنا علينا

حنوَّ المرضعات على الفطيم

وأَرْشُفَنا على ظمأ زُلالا»

الذَّ من المُدامة للنديم

يصدُّ الشمسَ أنّى واجهتنا

فيحجبها ويأذن للنسيم

يَروعُ حصاهُ حاليةَ العذارى

فتلمس جانبَ العِقدِ النظيم.

وممن جزم بذلك الرعيني، قال: إن مؤرخي بلادنا، نسبوها لحمدة من قبل أن يوجد المنازي الذي ينسبها له أهل المشرق، وقد رأيت أن أذكر كلامه برمته ونصّه: كانت من ذوي الالباب، وفحول أهل الأداب، حتى إن بعض المنتحلين تعلّق بهذه الاهداب، وادعى نظم هذين البيتين ـ يعني: ولما أبى الواشون، الى آخره ـ لما فيهما من المعاني والالفاظ العذاب، وما غرّه في ذلك الا بُعد دارها، وخلو هذه البلاد المشرقية من أخبارها، وقد تلبّس بعضهم أيضاً بشعارها، وادّعى غير هذا من أشعارها، وهو قولها: وقانا لفحة الرمضاء وادٍ، الى آخره، وأن هذه الأبيات نسبها أهل البلاد للمنازي من شعرائهم، وركبوا التعصب في جادة إدعائهم وهي أبيات لم يخلبها غير لسانها، ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا وهي الاندلس أثبتوها لها، قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود.

وقال إبن سعيد: يقال لنساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة «العربيات» لمحافظتهن على المعاني العربية، ومن أشهرهن زينب بنت زياد الوادي آشي، واختها حمدة المشهورة بقصيدة تصف فيها نزهة قامت بها الى نهر منقسم الجداول بين الرياض».

تناقلت قصائدها الأجيال، واضفت في رقة كلماتها وشفافية تعابيرها، تجديداً وتطويراً في الشعر، مشى على هدية الكثير من الشعراء في ما بعد.

توفيت سنة ١٢٠٤م.

المراجع

١ ـ الاعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين تأليف خير الدين الزركلي. الجزء الثاني. منشورات دار العلم للملايين.

٢ ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب. تأليف الشيخ أحمد بن محمد المقرّي التلمساني. الجزء الرابع. منشورات دار صادر.

٣ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الاول. منشورات مؤسسة الرسالة.

الخنساء بنت عمرو بن الشريد

هي الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشريد. إسمها تماضر. أما الخنساء، فلقب غلب عليها. فيها يقول دريد بن الصمّة، وكان خطبها فردّته:

حَيّوا تُماضِرَ وأربَعوا صحبي

وقفوا فإن وقوفكم حسبي

أخُناسُ قد هام الفؤاد بكم

وأصابه تَبْل من الحب

ما إن رأيت ولا سمعتُ به

كاليوم طالى أينقٍ جُربِ

متبدّلاً تبدو محاسنه

يَضَعُ الهناء مواضع النقبِ

كانت الخنساء شاعرة شهيرة وصحابية جليلة، قدمت على رسول الله مع قومها من بني سُليم وأسلمت معهم.

سئل جرير مرة: من أشعر الناس؟ اجاب: انا لولا الخنساء. وسئل مجدداً: لمَ فضّلتها عليك؟ فاجاب: لقولها:

إن الزمان وما يفنى له عجب

أبقى لنا ذنبا واستأصل الرأس

إن الجديدين في طول اختلافهما

لا يفسدان ولكن يفسد الناس

وسأل عبد الملك بن مروان: أي نساء الجاهلية أشعر؟ فقال الشعبي: الخنساء. فقال له عبد الملك: ولم فضّلتها على غيرها؟ قال: لقولها:

وقائلة والناس قد فات خطوها

لتدركه يا لهف نفسي على صخر

الا ثكلت أمّ الذين غدوا به

الى القبر ماذا يحملون الى القبر.

كانت الخنساء في أول أمرها، تقول البيتين والثلاثة، حتى قتل معاوية بن عمرو، وهو أخوها لأبيها وأمها، ثم قتل صخر، وهو أخوها لأبيها وكان أحبهما اليها، وذلك على أثر غزوه لبني أسد، وبقتل أخويها، اكثرت الخنساء من الشعر واجادت. ومن شعرها في أخيها صخر:

إذهب فلا يبعدنّك الله من رجل

مناع ضيم وطلاب لأوتار

قد كنت فينا مريحاً غير مؤتنب

مركباً في أنصاب غير خوار

فسوف أبكيك ما ناحت مطوقة

وما أضاءت نجوم الليل للساري.

أبكي متى الحيّ نالته منيته

وكل نفس الى وقت بمقدار.

وقالت ترثي أخاها معاوية لما قتله بنو مُرَّة:

الا لا أرى في الناس مثل معاوية

إذا طرقت إحدى الليالي بداهيه

بداهية يصغى الكلاب حسيسها

وتخرج من سرّ النجي علانيه

وكان لزاز الحرب عند شبوبها

إذا شمَّرت عن ساقها وهي ذانية

وقواد خيل نحو أخرى كأنها

سعال وعقبان عليها زبانيه

بلينا وما تبلى تعار وما ترى

على حدث الايام الا كما هيه

فأقسمت لا ينفعك دمعي وعولتي

عليك بحزن ما دعا داعية.

قيل للخنساء مرة: «صفي لنا أخويكِ صخراً ومعاويةً.

فقالت: «كان صخر والله جنّة الزمان الا غبر وذعاف الخميس الاحمر. وكان والله معاوية القائل الفاعل.»

قيل لها: «أيهما كان أسنى وأفخر»؟

قالت: «أما صخر فحرّ الشتاء. واما معاوية، فبرد الهواء». قيل لها: «أيهما أوجع وأفجع؟» قالت: «أما صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد».

وقالت:

أسدان محمرا المخالب نجده

بحران في الزمن الغضوب الأنمر

قمران في النادي رفيعاً محتد

في المجد فرعاً سؤدد متخير

سألها عمر بن الخطّاب أن تلقي عليه أفضل بيت في أخيها فقالت:

وكنت أعير الدمع قبلك من بكى

فأنت على من مات بعدك شاغله

وكانت تحضر المواسم، وتعاظم العرب بمصيبتها بأخويها صخر ومعاوية، وتنشدهم، فتُبكي من حولها.

حضرت الخنساء حرب القادسية، ومعها بنوها، وهم أربعة رجال. فقالت لهم من أول الليل: «يا بني أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين. والله الذي لا اله الا هو، إنكم بنو إمرأة واحدة ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيّرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية. فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين، فأغدوا الى قتال عدوّكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين. فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها، وحللت ناراً على أرواقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في الخلد والمقامة.

خرج بنوها متسلحين بنصائحها. ولما اصطبحوا، قاتلوا قتالاً ضارياً حتى استشهدوا الواحد تلو الآخر. ولما بلغها خبرهم قالت: «الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته».

ومن أبرز أشعارها في معركة القادسية:

دلٌّ على معرفة وجهه

بورك هذا هادياً من دليل

تحسبه غضبان من عِزِّه

ذلك منه خُلق ما يحول

ويَلُمْه مسعر حرب إذا

القي فيها وعليه الشّليل.

توفيت الخنساء في البادية في أول خلافة عثمان سنة ٢٤ هـ. ولها ديوان شعر في رثاء أخويها صخر ومعاوية.

المراجع

١ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الاول. منشورات مؤسسة الرسالة.

٢ ـ كتاب الأغاني، تأليف أبي الفرج الاصبهاني. المجلد الخامس عشر. منشورات دار إحياء التراث العربي.

٣ ـ الموجز في الادب العربي وتاريخه. تأليف حنا الفاخوري. الجزء الاول. منشورات دار الجيل.

خولة بنت الأزور الكندي

لم تكن المرأة العربية، تختصر في شخصيتها الام والزوجة. انما كانت منذ عصر الجاهلية الى جانب الرجل، خصوصا في الشدائد والمحن. فبرهنت عن قوة وعزيمة ثابتة فاقت احيانا قوة الرجل في الشجاعة والفروسية وغيرهما...

من أبرز النساء في هذا المجال خولة بنت الازور، شقيقة القائد ضرار بن الأزور الكندي. اعتبرتها كتب التاريخ والادب على مر العصور احدى ربات الفروسية والشجاعة والاقدام.

قتل والدها بين يدي رسول الله دفاعا عنه. اما شقيقها ضرار، فكان من القادة الكبار الذين ذاع صيتهم، واشتهر بالشجاعة. وكان يقاس اذا اشتملت عليه الوقائع بالف رجل.

اشتهرت خولة بجمال الوجه ونبل القلب ورباطة الجأش والاستبسال في القتال. اظهرت في المعارك التي دارت بين العرب والروم بسالة فائقة. وقد خلد التاريخ اسمها في سجل الابطال البواسل.

احبت الشعر والادب، حبها للفروسية. وتناقل الرواة قصائدها التي اشتهرت بشفافيتها وعمق شعورها وقوة عاطفتها وصدق كلمتها. من ابرزها قصيدة ناجت فيها شقيقها ضرار يوم أسر في احدى المعارك، وهي تفيض حزنا وأسى. ومما جاء فيها:

الا مخبر بعد الفراق يخبرنا

فمن ذا الذي يا قوم اشغلكم عنا

فلو كنت ادري انه آخر اللقا

لكنا وقفنا للوداع وودعنا

الا يا غراب البين هل انت مخبري

فهل بقدوم الغائبين تبشرنا

ومما قالت ايضا:

أبعد اخي تلذ الغمض عيني

فكيف ينام مقروح الجفون

سأبكي ما حييت على شقيق

أعز علي من عيني اليمين

فلو اني لحقت به قتيلا

لهان علي اذ هو غير هون

وكنت الى السلو أرى طريقا

واعلق منه بالحبل المتين

وأنا معشر من مات منا

فليس يموت موت المستكين

واني إن يقال مضى ضرار

لباكية بمنسجم هتون

وقالوا لم بكاك فقلت مهلا

أما ابكي وقد قطعوا وتيني

كان ضرار بن الازور قد أسر في وقعة اجنادين. وفور اسره، ثارت خولة وقررت السعي بنفسها لفك أسر شقيقها.

يروي الواقدي في هذا المجال ان خالداً بن الوليد سار في طليعة جنده لانقاذ ضرار. وبينما هو في الطريق مر به فارس طويل معتقل رمحه، ملثم لا يظهر منه الا الحدث تلوح الفروسية على شمائله، يرتدي ثيابا سوداء يحزم وسطه بعمامة خضراء مسحوبة على صدره، ويركض امام الجند والناس وكأنه شهب من النار.

قال خالد بن الوليد: «ليت شعري من هذا الفارس؟ لعمري انه لفارس شجاع». ثم تبع خالد بن الوليد الفارس الذي سبقه الى المشركين. فحمل على جيش الروم كأنه النار المحرقة، وزعزع كتائبهم، وحطم مواكبهم، ثم غاب في وسطهم. صعق خالد بن الوليد وفي ظنه ان الفارس الشجاع اصابه احد رماح الروم. الا ان الفارس الملثم ما لبث ان ظهر مجددا وسنانه ملطخ بالدم من الروم. وقد قتل رجالا وجندل ابطالا وعرض نفسه للهلاك، ثم اخترق القوم غير مكترث بهم ولا خائف منهم.

قلق عليه المسلمون وقال رافع بن عميرة: «ليس هذا الفارس الا خالد بن الوليد». ثم اشرف عليهم خالد فبادره رافع على الفور:

«من الفارس الذي تقدم امامك لقد بذل نفسه ومهجته؟». قال خالد: «انني والله اشد انكارا منكم له. اعجبني ما ظهر منه ومن شمائله». قال رافع: «ايها الامير انه منغمس في عسكر الروم يطعن يمينا وشمالا». قال خالد: «معاشر المسلمين، احملوا باجمعكم وساعدوا المحامي عن دين الله». عندها اطلقوا العنان لخيولهم وقوموا الاسنة والتصق بعضهم ببعض وخالد امامهم.

نظر الى الفارس، وراح يتأمله فوجده كتلة من نار والخيل في اثره. وكلما لحقت به جيوش الروم لوى عليها وجندلها. وعندما انتهت الحملة، وصل الفارس المذكور الى جيش المسلمين. تأملوه، واذا به مخضب بالدم، فصاح خالد والمسلمون: «لله درّك، من انت ايها الفارس الذي بذل مهجته في سبيل الله واظهر شجاعته على الاعداء، إكشف لنا عن لثامك». فما كان من الفارس الا ان عرض عنهم وتجنب

مخاطبتهم. فصاح به المسلمون: «ايها الرجل الكريم اميرك يخاطبك وانت تعرض عنه، اكشف عن اسمك وحسبك لتزداد تعظيما». فلم يرد عليهم. عندها اقترب منه خالد وقال له: «ويحك شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك، من أنت؟» فلما ألح خالد خاطبه الفارس من تحت لثامه بلسان التأنيث وقال: «انني يا امير لم اعرض عنك إلا حياء منك لانك امير جليل وانا من ذوات الخدور وبنات الستور». فقال لها: «من أنتِ؟».

فقالت: «انا خولة بنت الازور. كنت مع بنات العرب عندما اتاني الساعي بان ضرارا أسير.

فامتطيت حصاني وفعلت ما فعلت». قال خالد: «نشارك في الحملة جميعنا ونرجو من الله ان نصل الى اخيك ونفك اسره».

قال عامر بن الطفيل: «كنت عن يمين خالد بن الوليد حينما حملوا على الروم واندفعت خولة امامهم وعظم على الروم ما نزل بهم من خولة بنت الازور». فقالوا: «ان كان القوم كلهم مثل هذا الفارس لما لنا بهم طاقة».

وراحت خولة تجول يمينا وشمالا، تفتش عن شقيقها ولا ترى له اثرا ولا وقفت له على خبر الى ان حان وقت الظهيرة. تفرق القوم بعضهم عن بعض، وكان المسلمون قد تفوّقوا على اعدائهم وقتلوا منهم اعدادا كبيرة.

أقبلت خولة على المسلمين تسألهم رجلا رجلا عن أخيها. فلم يستطع احد منهم ان يعثر له على اثر. فلما يئست منه بكت بكاء شديدا ورثته بالقول: «يا ابن امي ليت شعري في اي بيداء طرحوك ام بأي سنان طعنوك ام بالحسام قتلوك. يا اخي اختك لك الفداء.

لو اني اراك انقذتك من ايدي الاعداء. ليت شعري اترى اني اراك ابدا بعدها. فقد تركت يا ابن امي في قلب اختك جمرة لا يخمد لهيبها. ليت شعري لحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي. فعليك مني السلام الى يوم اللقاء».

بكى الناس من قولها، وبكى خالد. وانطلق في حملة جديدة ضد الروم، ترافقه

خولة. فلما اقتربوا من الروم، القى هؤلاء سلاحهم وترجلوا ونادوا بالامان. فقال خالد: «اقبلوا امانهم وائتوني بهم فأتوا اليه». فقال خالد: «من انتم؟» فقالوا: «جند هذا الرجل وردان ومقامنا بحمص. وقد تحقق عندنا اننا لا نستطيع محاربتكم، فأعطونا الامان واجعلونا من جملة من صالحتم من سائر المدن حتى نؤدي لكم المال الذي اردتم في كل سنة، فكل من في حمص يرضى بقولنا».

قال خالد: «اذا وصلت الى بلادكم يكون الصلح ان شاء الله تعالى ان كان يكم فيه مأرب. لكن نحن هـهنا لا نصالحكم، كونوا معنا في ان يقضي الله ما هو قاض». ثم اضاف: هل عندكم علم بصاحبنا الذي قتل ابن صاحبكم يعني ضرار بن الازور؟» قالوا: «لعله عاري الجسم الذي قتل منا عددا عظيما وفجع صاحبنا في ولده». قال خالد: «عنه سألتكم». قالوا: «بعثه وردان عندنا اسيرا على بغل ووكّل به مائة فارس وانفذه الى حمص ليرسله الى الملك ويخبره بما فعل».

فرح خالد بقولهم، ثم دعا رافع بن عميرة وقال: «ماأعلم احدا اخبر منك بالمسالك وانت الذي قطعت ارض السماوة (بادية بين الكوفية والشام)، وانت اوحد وحد اهل الارض في الحيل والتدبير، فخذ معك من احببت واتبع اثر القوم، فعلك تلحق بهم وتخلص صاحبنا من ايديهم، فلئن فعلت ذلك لتكونن الفرصة الكبرى».

قال رافع: حبا وكرامة. واختار مائة من اشد الفرسان من المسلمين، وعزم على المسير. عندما علمت خولة بهذا الامر تهلل وجهها واسرعت الى حمل سلاحها واعتلاء جوادها وبادرت خالد بن الوليد بالقول: «ايها الامير، سألتك بالطاهر المطهر محمد سيد البشر الا ما سرحتني مع من سرحت. لعلي اكون مشاهدة لهم». فقال خالد لرافع: «انت تعلم شجاعتها. خذها معك». قال رافع: «السمع والطاعة». ورحل رافع ومن معه وسارت خولة في اثرهم ولم تختلط بهم. وعندما وصلوا الى بلدة سلمية (من اعمال حماه)، نظر خالد حوله فلم يجد للقوم اثرا. فقال لأصحابه:

ابشروا فإن القوم لم يصلوا الى هـهنا». فاختبأ ومن معه في وادي الحياة. وبعد فترة وجيزة، لاحت في الافق غبار تنبىء بقدوم مجموعة من الناس. فكمن لهم

رافع، ولدى وصولهم حملوا عليهم، ولم يكن غير ساعة حتى خلصوا ضرارا وقتلوهم جميعا واخذوا سلبهم.

من المواقع الشهيرة التي اظهرت فيها خولة بسالة عظيمة وفروسية نادرة موقعة صحورا من اعمال الشام. اذ أسرت النساء في تلك الموقعة، وكانت خولة من بينهن فجمعتهن ووقفت خطيبة بينهن وقالت: «يا بنات حمير وبقية تبع، أترضين لأنفسكن علوح الروم ويكون أولادكن عبيدا لأهل الروم، فأين شجاعتكن وبراعتكن التي تتحدث بها عنكن احياء العرب ومحاضر الحضر. واني أراكن بمعزل عن ذلك، واني أرى القتل عليكن اهون من هذه الاسباب، وما نزل عليكن من خدمة الروم». فقالت لها عفراء بنت غفار الحميرية: «صدقت والله يا بنت الازور،ونحن في الشجاعة كما ذكرت وفي البراعة كما وصفت، غير ان السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت. وانما دهمنا العدو على حين غفلة، وما نحن الا كالغنم بدون سلاح». فقالت خولة: «يا بنات التتابعة خذوا اعمدة الخيام واوتاد الاطناب، ونحمل بها على هؤلاء اللئام. فلعل الله ينصرنا عليهم فنستريح من معرة العرب». فقالت عفراء بنت غفار: «والله ما دعوت الا ما هو احب الينا مما ذكرت».

ثم تناولت كل واحدة عمودا من اعمدة الخيام، وصحن صيحة واحدة، والقت خولة على عاتقها عمودا وسعت من ورائها عفراء ام أبان بنت عتبة، ومسلمة بنت زارع وروعة بنت عملون وسلمة بنت النعمان وغيرهن. فقالت لهن خولة. «لا ينفكّ بعضكن عن بعض، وكن كالحلقة الدائرة ولا تفترقن فتملكن فيقع بكن التشتيت وحطمن رماح القوم واكسرن سيوفهم. وهجمت خولة والنساء، وقاتلن قتالا شديدا حتى تحررن من ايدي الروم». فخرجت خولة وهي تقول:

«نحن بنات تبع وحمير

وضربنا في القوم ليس ينكر

لأننا في الحرب نار تُسعر

اليوم تُشقون العذاب الاكبر».

توفيت خولة في اواخر خلافة عثمان بن عفان.

هكذا يتضح ان المرأة المسلمة قد شاركت الرجل الشجاعة والحمية والفروسية. وقد امتلأت كتب التاريخ باخبار سير النساء والمعارك التي خضنها ببسالة فائقة.

يتضح مما تقدم ان نساء العرب لم يدعن لرجالهن ميزة يستأثرون بها دونهن. ولم يتركن سبيلا من سبل العظائم ولا مشرفا من مشارف المكارم الا وكنّ السابقات اليه، والواثبات الى غايته، لدرجة انهن جاذبن الرجال حبل البطولة، واصطلين نيران الحروب، فأملن ميزانها، واثرن نيرانها، وتحكمن بعنانها.

وهن وان امتلكن في قلوبهن فيضا من الرحمة والمعونة، فانهن لا يتأخرن عن امتشاق السيوف والقتل من دون هوادة ولا رحمة، اذا هددت عائلتهن أو بيوتهن او مضاربهن. وتدل الاحداث التاريخية المتتابعة على الكثير من الهزائم التي كانت وراءها، نساء حملن لواء الحق ورفعن قضية الكرامة والحرية. وما سيرة خولة بنت الازور الا نموذجا لما حققت المرأة من بأس وشجاعة نافست في احيان كثيرة الرجل في عمق شخصيته وميزاته الخاصة وخصاله الشاملة القوة والشجاعة والاقدام.

المراجع

١ ـ المرأة العربية في جاهليتها واسلامها (الجزء الثاني). تأليف عبد الله عفيفي منشورات دار الرائد العربي. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٢.

٢ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام (الجزء الأول) تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٣ ـ المرأة واثرها في الحياة العربية. تأليف عبد الحميد فايد. منشورات دار الكتاب اللبناني. مكتبة المدرسة. الطبعة الثانية ١٩٨٣.

الخيزران

منذ فجر الاسلام عرفت المرأة العربية برجاحة عقلها وقوة بيانها. واذا كانت المرأة عرفت في اطوارها المختلفة، بالاكثار من فضول القول، لتبلغ في نفوس جلسائها، فان المرأة العربية تجاوزت هذا الامر، بما زخر اسلوبها من دقة وبراعة، وسماحة رأي وحسن بيان.

كانت المرأة العربية، تتسامى في ارتياد اجمل القول، وكشف فنونه وشؤونه، ودرك مواطن القوة والضعف فيه. فغاصت في حومة البيان والفصاحة قائلة، ناقدة. فان نقدت، فنقد القائل الحكيم، او قالت فقول الناقد العليم، او حكمت فحكم العادل الجازم، النافذ والمدرك. لذلك، عمد الاسلام الى المرأة وولاها سلطة القوة والنفوذ الى جانب الرجل. فبرعت وابدعت وغيَّرت برأيها السديد معالم واحداثا وتركت بصماتها على التاريخ.

من أبرز النساء اللاتي غيّرن مجرى التاريخ «الخيزران بنت عطاء». من ربات السياسة والنفوذ والسلطان، لعبت «الخيزران بنت عطاء» دورا عظيما في وراثة ولدها الهادي، واستبدت بالامر حتى شاركته في شؤون الدولة.

كان الهادي كثير الطاعة لامه، يستشيرها في كل شاردة وواردة، ويعمل بنصيحتها، ولا يتخذ القرارات الهامة في شؤون الدولة الا بعد موافقتها. فكانت باختصار لولب الوراثة، الحاكمة الفعلية الآمرة الناهية. وكانت الى كل ذلك، لا تخلو المواكب من بابها، يقول عن هذا الامر ابو المعافي:

«يا خيزران هناك ثم هناك

إن العباد يسوسهم إبناك»

والهادي هو نموذج للخلفاء والامراء الذين تأثروا بحكمة امهاتهم وقوة بيانهن، ولعل ابرزهم على سبيل المثال عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان...

لم تكد تمضي عدة اشهر على خلافة الهادي، حتى انهال عليه الطامعون. فلجأ الى امه يستشيرها في ما يجب القيام به للحؤول دون تداعي ملكه.

فسألته الخيزران ان يولي خاله الغطريف اليمن. فوعدها بذلك. ثم كتبت اليه يوما رقعة تستفسر عن العرض. فحمل مبعوثها الاقتراح الآتي: «خيريه بين اليمن، وطلاق ابنته، فأيهما اختار فعلته».

دخل المبعوث على الخيزران، ونقل لها الاقتراح محورا، ذلك انه لم يفهم مضمونه فأخبرها بغيره. ثم خرج الى الهادي وقال له: تقول لك ولاية اليمن».

فغضب وطلق ابنته وولاه اليمن. ودخل المبعوث فأعلمه بذلك، فارتفع الصياح من داره، فقال: «ما هذا»؟ فقالوا: «من دار بنت خالك» قال: «او لم تختر ذلك؟» قال: لا. لكن المبعوث لم يفهم ما قلت فأدى غيره وعجلت بطلاقها.

ندم الهادي اشد الندم ودعا صالحا صاحب الموصل وقال له:

«اقم على رأس كل رجل بحضرتي من الندماء رجلا بسيف. فمن لم يطلق امرأته منهم فلتضرب عنقه» ففعل ذلك، ولم يبق من حضرته احد الا وطلق امرأته.

هذه الحادثة بالذات، اثرت الى حد بعيد في احداث نوع من التوتر في العلاقة بين الهادي وامه. ذلك ان الناس احبوا الخيزران لدرجة ان الهادي شعر بضعف شخصيته، فتملكه الاستبداد والكره الشديد لوالدته. وهكذا انقلب الحب والاحترام الى جفاء وحقد. وكانت الخيزران تراعي شعور ابنها وتحاول قدر الامكان هدايته، ومنعه من اتخاذ القرارات المتهورة.

يروى في هذا المجال ان الخيزران كلمت الهادي ذات يوم في امر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلا، وراح يخترع لها العلل والحجج. فقالت بحزم: «لا بد من اجابتي». فقال: «لا افعل». قالت: «اني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك».

فغضب الهادي وقال: ويل لابن الفاعلة قد علمت انه صاحبها لا قضيتها لك. قالت: «اذا والله لا أسأل حاجة ابدا. قال: «إذا والله لا أبالي».

غضبت الخيزران اشد الغضب وقامت وتوجهت الى الباب وهمت بالخروج، فما كان من الهادي الا ان استوقفها قائلا: «مكانك، فاستوعبي كلامي والله والا نفيت من قرابتي من رسول الله ان بلغني انه وقف ببابك احد من قوادي او احد من خاصتي او خدمي لاضربن عنقه ولأقبضن ماله. فمن شاء فليلزم ذلك». وبلغ به الحقد على امه الى حد القول: «ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك في كل يوم. اما لك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك؟ اياك ثم اياك ما فتحت بابك (فاك) لملي او لذمي. فانصرفت ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها.

ولم يتوقف الهادي عند هذا الحد، بل جمع قواده وقال فيهم: «ايما خير انا او انتم؟» قالوا: «انت يا امير المؤمنين». قال: ايكم يحب ان يتحدث الرجال بأمه فيقولون فعلت ام فلان، وصنعت ام فلان، وقالت ام فلان». قالوا: «ما احد منا يحب ذلك». قال: «فما بال الرجال يأتون امي فيتحدثون بحديثها؟» فلما سمعوا ذلك انقطعوا عن الخيزران البتة. فشقّ عليها هذا الأمر، فقررت هي الام، قبل كل شيء، ان تتبرأ من ابنها الذي خان قيمها ومبادئها، وما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة.

بلغ الحقد بالهادي على امه الخيزران مبلغا عظيما. فبعث اليها بطعام مسموم. وقبل ان تهمّ بتناوله، حذرتها خادمتها خالصة قائلة لها: «امسكي حتى تنظري، فإني اخاف ان يكون فيها شيء تكرهينه. فجاؤوا بكلب، فأكل منه فتساقط لحمه. فأرسل اليها بعد ذلك قائلا: «كيف رأيت الطعام؟» اجابته: «وجدتها طيبة». قال: «لم تأكلي ولو اكلت لكنت استرحت منك. متى افلح خليفة له ام؟».

أما الخيزران، فأوقدت فيها معاملة ولدها جذوة الحقد والانتقام، فأمرت جواري لها بقتله، فقتلنه بدس السم اليه. وبذلك انتهت المعركة السياسية بينهما وتخلصت من عدوِّها اللدود الذي كان في ما مضى فلذة كبدها وأحب الخلق اليها. ولما حضرته الوفاة، أتاها المبعوث وأخبرها بذلك. فبادرت الى القول والحزن يعصر قلبها:

«وما أصنع به؟» فقالت لها خالصة: «قومي الى إبنك أيتها الحرّة، فليس هذا وقت عتب او غضب». فقالت: «اعطوني ماء أتوضأ للصلاة». وأضافت: «أما كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة، ويملك فيها خليفة، ويولد خليفة، فمات موسى وملك هارون وولد المأمون».

هكذا أسدل الستار ظاهريا على علاقة أم وولدها، كانت من أشد العلاقات متانة وتحوّلت بين ليلة وضحاها الى كتلة من الحقد والكراهية. كل ذلك بسبب رفض الخيزران مجاراة الهادي في أخطائه، ووقوع الهادي ضحية غروره وشخصيته الضعيفة.

وكانت النتيجة خسارة حياة وخسارة فلذة كبد.

كانت غلّة الخيزران في السنة حوالى المائتي الف درهم ونظرا لحبها لشعبها ولبلدها، أمرت بحفر نهر المحدود في أرض العراق قرب الأنبار في جانب الديار الغربي منها، وسمته الريّان وجعله وكيلها اقساما لكل قسم حدود، ووكل حفره الى مجموعات من الناس، لذلك سمي المحدود. وقد سمح الريّان في إنعاش القوم وفي توفر المياه بكثرة وما المياه بنظر الخيزران الا رمز الحياة التي فقدتها بفقدان إبنها.

من مآثر الخيزران أيضا أنها ذهبت الى الحج، ولما خرجت صاح بها أبو دلامة (شاعر من شعراء العصر العباسي) فسألته عن أمره، فقال لها: «أيتها السيدة إني شيخ كبير وأجرك عظيم». قالت: «وما تريد». قال: «تهبين لي جارية من جواريك تؤنسني وترفق بي وتريحني من عجوز عندي قد أكلت رفدي وأطالت كدّي. فقد عاف جلدي جلدها وتمنيت بعدها وتشوقت فقدها. فضحكت الخيزران وقالت: «سوف آمر لك بما سألت. فلما رجعت لاقاها وذكرها وخرج معها الى بغداد. ثم دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون فرفع اليها رقعة كتبها الى الخيزران وفيها:

«أبلغ سيدتي بالله يا أم عبيده

أنها أرشدها الله وإن كانت رشيده».

ولما قرأت الخيزران الأبيات ضحكت ودعت إحدى جواريها وقالت لها: «خذي كل ما لك في قصري». ففعلت ثمّ دعت بعض الخدم وقالت لهم: «سلموها الى أبي دلامة».

في رواية اخرى ان أبا دلاّمة دخل على المهدي فقال: «يا أمير المؤمنين ماتت أم دلامة ولم يعد احد يتعاطى معي». فأمر له أمير المؤمنين بألف درهم يشتري بها أمة تؤنسه، وفي الوقت ذاته، دسّ أم دلامة على الخيزران فقالت: «يا سيدتي، مات أبو دلامة وبقيت ضائعة». فأمرت لها بألف درهم. فدخل المهدي على الخيزران وهو حزين. فقالت: «ما بال أمير المؤمنين»؟

قال: «ماتت أم دلامة». فقالت: «إنما مات أبو دلامة». فقال: «قاتل الله أبا دلامة وأم دلامة. لقد خدعانا والله».

الى جانب نفوذها السياسي، كانت الخيزران أديبة، شاعرة أخذت العلم عن الاوزاعي. ويروى في هذا المجال ان المهدي مرض يوما. ولما علمت بالأمر، إختارت له دواء وأرسلته اليه مع أحدى وصيفاتها مرفقا بأبيات شعرية.

فسرّ بها، وزار الخيزران وشكرها.

من بلاغتها أيضا أن المهدي قال للخيزران: «إن موسى إبنك يتيه ان يسألني حوائجه». فقالت: يا أمير المؤمنين، الم تكن انت في حياة المنصور لا تبتديه بحوائجك وتحب أن يبتدئك هو موسى إبنك كذلك يحب منك».

قال: «لا ولكن التيه يمنعه».

قالت: يا أمير المؤمنين فمن أي ناحية أتاه التيه، أمن قبلي أم من قبلك»؟

توفيت الخيزران عام ١٧٣ هـ. فخرج الرشيد خلف جنازتها وعليه طيلسان أزرق وقد شدّ به وسطه وهو آخذ بقائمة السرير حاف يعدو في الطين حتى وصل مقابر قريش. فغسل رجله ودعا بخف فلبسه وصلى عليها ودخل قبرها. ولما خرج من المقبرة، وضع له كرسي فجلس عليه، ودعا الفضل بن الربيع ودفع اليه الخاتم وقال: «إني كنت أهمّ أن أوليك فتمنعني أمي فأطيعها».

المراجع

١ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الاول . منشورات مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٢ ـ المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها. تأليف عبد الله عفيفي. الجزءان الاول والثاني. منشورات دار الرائد العربي. بيروت.

دنانير

مغنية كبيرة من مغنيات العصر العباسي. كانت صفراء، مولّدة، ومن أحسن الناس وجهاً وأظرفهن وأكملهنّ أدباً واكثرهنّ رواية للغناء وللشعر. كانت لرجل من أهل المدينة خرّجها وأدّبها. ولما رآها يحيى بن خالد البرمكي أعجب بها، فاشتراها.

أخذت الغناء من بذل وأكابر المغنين في عصرها مثل فليح وإبراهيم الموصللي وابن جامع وإسحق وغيرهم... ونبغت في الغناء، وكثيراً ما كانت تفوز على إبن جامع المغني المشهور. نسب اليها كتاب مجرّد في الاغاني.

وصل صيتها الى الرشيد، فأعجب بها، وكان يسير الى منزل يحيى البرمكي ليسمعها ويتمتع بغنائها الشجي، فألفها واشتد إعجابه بها، فأجزل لها العطاء والهبات. وفي إحدى المرات قدَّم لها عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار. ولما علمت ام جعفر زوجته بالامر شكته الى عمومته، فعاتبوه. سمع عتابهم، وما ان انتهوا حتى قال لهم: ما لي في هذه الجارية من أرب في نفسها وإنما أربي في غنائها. اسمعوها. فإن استحقق أن يؤلَف غناؤها وإلا فقولوا ما شئتم. فأقاموا عنده، ورافقهم الى يحيى البرمكي، ولما سمعوها اعجبوا بغنائها وعذروه. وعادوا الى أم جعفر وأشاروا عليها أن لا تلح في أمرها، فقبلت ذلك.

كانت دنانير تغني غناء إبراهيم الموصللي فتنافسه فيه حتى لا يكون بينهما فرق. وكان ابراهيم يقول ليحيى: «متى فقدتني ودنانير باقية فما فقدتني».

يروى أن دنانير كانت تبتكر الالحان وتعرضها على ابراهيم، وكان هذا الاخير يعجب بها إعجاباً شديداً، ويطلب منها أن تعيد اللحن مرات عديدة حتى يستمتع به.

فاعترف لها بالحذق في الغناء، وبالإجادة في هذه الصنعة، قال له يحيى مرة: «وصفك لها يقوم مقام تعليمك إياها. قد سررتني وسأسرّك». ومنحه المال الوفير.

قال ابراهيم الموصللي عن هذا الأمر: قال لي يحي بن خالد إن ابنتك دنانير عملت صوتاً إختارته وأعجبت به فقلت لها: لا يشتدّ اعجابك حتى تعرضيه على شيخك، فان رضيه فأرضيه لنفسك» وإن كرهه فاكرهيه، فامضي حتى تعرضيه عليه، فقلت له: أيها الوزير فكيف إعجابك، فإنك والله ثاقب الفطنة صحيح التمييز. قال: اكره أن أقول لك أعجبني فيكون عندك غير معجب، إذ كنت عند رئيس صناعتك تعرف منها ما لا أعرف وتقف من لطائفها على ما لا أقف، وأكره أن أقول لك لا يعجبني وقد بلغ من قلبي مبلغاً محموداً، وانما يتم السرور به، إذا صادف ذلك منك إستجادة وتصويباً. قال: «فمضيت اليها». وكان قد تقدّم الى خدمه يعلمهم بأنه سيرسل بي الى داره فأدخلت. وإذا بالستار قد نصبت، فسلمت على الجارية من وراء الستارة، فرددت السلام وقالت: يا أبتِ أعرض عليك صوتاً قد تقدّم ولا شك إليكَ خبره، وقد سمعت الوزير يقول إن الناس يُفتنون بغنائهم، فيعجبهم منه ما لا يعجب غيرهم، يفتنون بأولادهم فيحسن في أعينهم منهم ما ليس يحسن، وقد خشيت على الصوت أن يكون كذلك. فقلت: هات، فأخذت عودها وغنت:

نفسي أكنتُ عليك مدعياً

أم حين أزمع بينهم خنتِ؟

إن كنتِ مولعة بذكرهم

فعلى فراقهم الا متِّ؟

قال: فأعجبني والله غاية العجب، واستخفني الطرب حتى قلت لها أعيديه، فأعادته وأنا أطلب لها موضعاً أصلحه، وأغيره عليها، لتأخذه مني، فلا والله ما قدرت. ثم قلت لها: اعيديه الثالثة فأعادته، فإذا هو كالذهب المصفّى. فقلت لها: أحسنتِ يا بنيّة وأصبتِ. وقد قطعتِ بحسن إحسانك، وجودة إصابتك. ثم خرج.

وفي الباب صادف يحيى فقال له هذا الاخير: «كيف رأيت صنعة إبنتك دنانير؟» فأجابه: سمعته مرات من أجل أن اجتلب لنفسي مدخلاً يؤخذ عني وينسب إليّ فلا والله ما وجدته».

أصيبت دنانير مرة بالعلة الكلبية. وكانت لا تتوقف عن الاكل ساعة واحدة. وكان يحيى يتصدّق عنها في كل يوم من شهر رمضان بألف دينار لأنها كانت لا تصومه.

ظلت دنانير موالية للبرامكة حتى بعد سحقهم من قبل الرشيد. وقد أتى بها هذا الاخير الى قصره، فأكرمها ورفع مجلسها، وطيّب نفسها بعهده. وفي إحدى الجلسات قال لها: «يا دنانير، إنما كان مولاك وأهله عبيداً لي وخدماً، فاصطفيتهم فما صلحوا، وأوقعت بهم لما فسدوا، فاعدلي عمن فاتك الى من تحصلينه».

فقالت: يا أمير المؤمنين، إن القوم أدّبوني وخرجوني وقدموني واحسنوا الي إحسانا، منه، أنك قد عرفتني بهم وحللت هذا المحلّ منك ومن إكرامك، فما أنتفع بنفسي ولا بما تريده مني، ولا يجيء كما تقدر بأني إذا ذكرتهم وغنيت، غلب عليّ البكاء ما لا يبين معه غناء ولا يصحّ، وليس هذا مما املك دفعه، ولا أقدر على إصلاحه، ولعلي إذا تطاولت الايام أسلو ويصلح من أمري ما قد تغيّر، وتزول عني لوعة الحزن عند الغناء، ويزول البكاء.

فدعا الرشيد مسروراً وهو خادمه الخاص، وسلمها اليه وقال له: «أعرض عليها أنواع العقاب حتى تجيب الى الغناء». ففعل ذلك فلم ينفع. ولما أخبر الرشيد طلب منه أن يردها اليه. فردّها، فقال لها: «إن لي عليكِ حقوقاً، ولي عندك صنائع. فبحياتي عليك وبحقي الا غنيتِ اليوم، ولست أعاود مطالبتك بالغناء بعد الغناء، فأخذت العود وغنت:

تبلى مغازي الناس إلا غزوةً

بالطالقان جديدة الايام

ولقد غزا الفضل بن يحيى غزوةً

تبقى بقاء الحلّ والإحرام

ولقد حشمت الفاطمي على التي

كادت تزيل رواسي الإسلام

وخلعت كُفرَ الطالقان هديّة

للهاشمي إمام كلّ إمام

ثم رمت العود وبكت حتى سقطت مغشية، وشرقت عين الرشيد بالدموع، وقام من مجلسه، وبكى طويلاً ثم غسل وجهه وعاد الى مجلسه وقال لها: ويحك، أعدلي عن هذا وغنّي غيره، فأخذت العود وغنّت:

ألم ترَ أن الجود من صلب آدمٍ

تحدّر حتى صار في راحة الفضل

إذا ما أبو العباس جادت سماؤه

فيا لكَ من جود ويا لكَ من فضل

غضب الرشيد وقال: قبّحك الله، خذوا بيدها واخرجوها.»

أخبر أحمد بن الطيّب أن الرشيد دعا دنانير البرمكية بعد قتله البرامكة، فأمرها أن تغني فقالت: يا أمير المؤمنين، إني آليت أن لا أغني بعد سيدي أبداً. فغضب وأمر بصفعها، فصفعت، وأقيمت على رجليها، وأعطيت العود، وأخذته وهي تبكي وغنّت:

يا دار سلمى بنازح السنَد

بين الثنايا ومَسْقَط اللِّبَدِ

لما رأيتُ الديارَ قد دَرَسَتْ

أَيْقَنْتُ أنَّ النعيمَ لم يَعُدِ.

رقَّ لها الرشيد وأمر بإطلاقها. ثم التفت الى ابراهيم بن المهدي وقال: «كيف رأيتها؟» فقال: «رأيتها تختله برفق وتقهره بحذق.

خطبها عقيل مولى صالح بن الرشيد وكان يهواها ويشغف بذكرها، فردّته. وتشفَّع عند مولاه صالح بن الرشيد وبذل والحسين بن محرز، فلم يلقَ صدى لطلبه. وبقيت وفيّة لمولاها. فكتب اليها عقيل:

يا دنانير قد تنكر عقلي

وتحيرت بين وعد ومطل

شغفي شافعي اليكِ وإلا

فاقتليني إن كنت تهوين قتلي

أنا بالله والامير وما

آمل من موعد الحسين وبذل

ما أحب الحياة يا أخت إن لم

يجمع الله عاجلاً بكِ شملي.

لم يؤثر فيها هذا الكلام، وبقيت على موقفها الحازم الرافض. ويقال انها لبست الخشن من الثياب ولزمت الحزن الى أن ماتت. سنة ٢١٠ هـ. ولم يفِ للبرامكة من جواريهم غيرها.

المراجع

١ ـ المرأة العربية في جاهليتها وفي إسلامها. تأليف عبد الله عفيفي. الجزء الثالث. منشورات دار الرائد العربي.

٢ ـ القيان. تأليف أبي الفرج الاصبهاني. منشورات دار رياض الريس للكتب والنشر.

٣ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تأليف عمر رضا كحاله، الجزء الاول. منشورات مؤسسة الرسالة.

٤ ـ كتاب الاغاني. تأليف ابي الفرج الاصبهاني. المجلد الثامن عشر. منشورات دار إحياء التراث العربي.

ذات الخال

جارية مغنية من أجمل النساء وأكملهن أدباً وشعراً وغناءً. إمتازت بوجود خال فوق شفتها العليا، لذلك عرفت بذات الخال. وكان يقال لها أيضاً «خنث».

إشتراها المغني الشهير إبراهيم الموصللي. وسرعان ما رأى فيها نباهة وسرعة في البديهة وذكاءً وقّاداً، إضافة الى صوت جميل. فعلمها أصول الغناء، وكانت تجيد قول الشعر الامر الذي دفعها بسرعة الى تبوء مركز مرموق في عالمي الشعر والغناء.

إستهوى جمالها وذكاءها إبراهيم الموصللي، فعشقها نظراً لما كانت تتمتع به من خفة في الروح، وقال فيها الشعر، وشهرها بشعره وبغنائه.

بلغ الرشيد خبرها، فاشتراها من ابراهيم الموصللي بسبعين الف درهم. رحلت ذات الخال الى قصر الرشيد وتركت ابراهيم يعاني وحده آلام الفراق والحسرة على من علّم ومن أحبّ. وقال فيها:

أتحسب ذات الخال راجية رَبّا

وقد فتنت قلباً يهيم بها حبّا

وما عذرها نفسي فِداها ولم تدعِ

على أعظمي لحماً ولم تُبقِ لها لبّاً.

وفي قصر الرشيد أجادت ذات الخال، ولفتت الشعراء بموهبتها الشعرية، وأسَرَت الرشيد بسحر كلماتها وبصوتها الشجي. ولم يكن الرشيد يعقد مجلساً الا

وتكون ذات الخال مشاركة فيه شعراً وغناءً.

ولم تكد تمضي فترة قصيرة على وجودها في البلاط، حتى أحبّها الرشيد، بعدما أعجب بذكائها وبقوة شخصيتها. فنالت شهرة واسعة، وشهدت مجالس الرشيد وفرة في الشعراء والمغنين الذين أتوا البلاط للتعرف على صاحبة الصوت الجميل التي أسرت الرشيد.

الا ان فترة مكوث ذات الخال في قصر الرشيد لم تدم طويلاً. ففي أحد الايام، وبينما كان المجلس ملتئماً، وبلحظة غضب وهبها الرشيد الى حمويه. وبعد مدة من الزمن، إشتاق الى حضورها المميز، فاستدعى حمويه وقال له: «ويلك يا حمويه، وهبناك الجارية ليس لتسمع غناءها وحدك؟» فأجابه: «يا أمير المؤمنين، مرّ فيها بأمرك». قال له الرشيد: «نحن عندك غداً. عندها مضى حمويه، واستعدّ لذلك. فاستأجر لها من بعض الصاغة عقودا ثمنها إثنا عشر الف دينار. ولما خرجت الى الرشيد دهش حين رآها وبادر حمويه الى القول: «ويلك يا حمويه، من أين لك هذا؟» فأخبره حمويه بحقيقة الامر. عندها، بعث الرشيد الى اصحاب الجواهر فاشتراها منهم ووهبها إياها. ثم حلف أن لا تسأله حاجة الا وقضاها لها. فسألته أن يولي حمويه الحرب والخراج، وكان لها ما تريد.

إزداد تأثير ذات الخال الفكري والفني على الرشيد، وكان في كل مرة يودّ التمتع بالشعر الجميل وبالغناء الرفيع يقصدها، فتطربه بحسن أدائها. وفي أحد الايام، دعته، فوعدها أن يأتيها. إلا أنه لم يفِ بوعده، فغضبت ذات الخال، وقالت: «والله لأطلبنّ له شيئاً أغيظه به». وما كان منها الا أن قصت الخال الذي كان على خدها. بلغ الامر الرشيد، فغضب، وخرج من موضعه، وقال للفضل بن الربيع: «أنظر من بالباب من الشعراء، فقال: «الساعة رأيت العباس بن الاحنف». فطلب منه إدخاله واخبره القصة، وطلب منه ان ينظم قصيدة فقال:

تخلصت ممن لم يكن ذا حفيظة

وملت الى من لا يغيّره حال

فإن كان قطع الخال لما تطلعت

الى غيرها نفسي فقد ظلم الخال

فنهض الرشيد الى ذات الخال مسرعاً مسترضياً لها، وأمر للعباس بألفي دينار، وأمر إبراهيم الموصللي فغناه.

أوحت ذات الخال بجمالها وبذكائها الى العباس بن الاحنف بالشعر، وقال فيها القصائد التي تغنَّت بمواهبها الابداعية، وحملت ما في قلب الشاعر من لواعج الحب. ومما قال:

الا ليت ذات الخال تلقى من الهوى

عشير الذي أَلْقَى فيلتئم الشَّعبُ

إذا رضيت لم يَهْنِنِي ذلك الرضا

لعلمي به أن سوف يتبعُه العتبِ

وأبكي إذا ما أذنبت خوف صَدّها

وأسألها مرضاتها ولها الذنب

وصالكم صُرْمُ وحبُّكُم قّلى

وعطفكم صَدّ وسَلْمُكم حرب.

وعلى الرغم من أن ذات الخال أضحت جارية الرشيد وحبيبته، الا أن ابراهيم الموصللي الذي كان أول من اكتشفها لم ينس حبها، ولم تخفّف الايام والسنوات من آلام الفراق ومن اجمل ما قال فيها:

أذات الخـال قـد طـال

بمن أسقمتهِ الوجَعُ

وليس الى سواكم في الْ

كذى يلقى له فَزَع

أما يمنعكِ الإسلا

مُ من قتلي ولا الوَرَع

وما ينفكّ لي فيك

هوىً تَغْتَرُه خُدَعُ

يروى في هذا المجال، أن إسحق بن إبراهيم الموصللي دخل على والده يوماً، فقال له هذا الاخير:

ما أفدت اليوم؟ اجابه: أعظم فائدة. سألني رجل، ما أفخم كلمة في الفم؟ قلت له: لا إله إلا الله. فقال له أبوه: أخطأت. هلا قلت: دنيا ودينا. وهو يشير هنا الى ذات الخال إذ قال فيها:

لا تلمني ان ذات ال

خال دنياي وديني.

ومن أجمل اقوال ابراهيم الموصللي في ذات الخال وأرقها هذه الأبيات:

لذات الخال أرَّقني

خيال بات يلثمني

بكى وجرى له دمع

لما بالقلب من حَزَن

فلا أنساه أو أنسى

إذا أُدرِجْت في كفني.

المراجع

١ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تاليف عمر رضا كحاله. الجزء الاول. منشورات مؤسسة الرسالة.

٢ ـ كتاب الاغاني. تأليف ابي الفرج الاصبهاني. الجزء السادس عشر. منشورات دار إحياء التراث العربي.

الزبّاء بنت عمرو

ملكة شهيرة في العصر الجاهلي، صاحبة تدمر، وملكة الشام والجزيرة. كانت أمّها يونانية من ذريّة كليوباتره.

تميزت بالعقل الراجح، وبالرأي السديد، وبالدهاء، وبالحزم، وبالبأس الشديد مع جمال بارع وحُسن باهر. كانت غزيرة المعارف، مولعة بالصيد وبالقنص، تحسن اكثر اللغات الشائعة في عصرها. وكتبت تاريخاً للشرق.

لما قتل والدها من قبل الملك جذيمة، ارتقت الى سدّة المُلك، وراحت تحصن مملكتها وتبني المدائن والقصور على شطّ الفرات من الجانب الغربي والشرقي. واتخذت لنفسها نفقاً في حصن كان لها على شطّ الفرات.

ولما استحكم مُلكها، راحت تغزو بجيوشها وجنودها الممالك القريبة، وقررت غزو جذيمة الابرش طلباً للثأر لأبيها. الا ان شقيقتها زبيبة، وكانت ذات رأي ودهاء، حذّرتها من مغبة هذا الامر وقالت لها: «يا زبّاء، إنك إن غَزوت جذيمة فإنما هو يوم له ما بعده. إن ظفرتِ أصبتِ ثأركِ، وإن قُتلتِ ذهب مُلكك والحرب سجال... «فقالت لها الزبّاء: «قد أدّيتِ النصيحة واحسنتِ الرويّة، وإن الرأي ما رأيتِ والقول ما قلتِ». فأعرضت عن غزو جذيمة، ولجأت الى الحيلة والمكر، وكتبت اليه تدعوه الى وصل بلاده ببلادها.

ولما وصل الكتاب الى جذيمة، جمع كبار قومه واستشارهم في الامر. فأجمعوا على وجوب الذهاب اليها والاستيلاء على ملكها. الا أن قصير بن سعد بن جذيمة، وهو من أقرب المقربين الى الملك، خالفهم الرأي وقال لجذيمة: «أكتب إليها، فإن كانت

ضادقة، فلتقبل اليك، وإلا لم تمكّنها من نفسك، ولم تقع في حبالها، وقد وتّرتها وقتلت أباها. «فلم يوافق جذيمة على ذلك.

وفوراً عين على رأس مُلكه وسلطانه عمرو بن عدي، وسار على رأس جنده وأصحابه الى الزبّاء. فاستقبله رسل هذه الاخيرة بالهدايا، وسار وقد أحاطت به الخيول حتى دخل على الزبّاء. ولما رأته، قالت: «يا جذيمة أدأب عروس ترى».

فقال لها: «بلغ المدى وجفَّ الثرى وأمرَ غدرٍ أرى». فقالت: «إني أُنبئتُ أن دماء الملوك شفاء من الكلب». ثم أجلسته وأمرت بوعاء من الذهب، فأعدته له، وسقته من الخمر حتى أخذت مأخذها، عندها أمرت بقطع شرايين يده. ولما ضعفت يداه سقطتا وتقاطر الدم خارج الوعاء. وهكذا هلك جذيمة.

خرج قصير من الحي، يتملكه الهلع والغضب ولما وصل الى قومه اخبرهم بالامر وقال لعمرو بن عدي: «تهيأ واستعدَّ ولا تطل دمّ خالك». فقال له عمرو: «وكيف لي بها وهي أمنع من عُقاب الجو؟» فأجابه قصير: «إجدع أنفي وأضرب ظهري، ودعني وإياها». فقال له عمرو: «ما أنا بفاعل وما أنت لذلك بمستحق مني». فما كان من قصير الا أن جدع أنفه وأثّر بظهره. ثم خرج الى الزّباء وكأنه هارب، وأظهر أن عمرا فعل ذلك متهما اياه بخيانة جذيمة. ولما قدَّم على الزباء، قيل لها: «إن قصيراً بالباب». فأمرت به، فأدخل عليها، فإذا أنفه قد جدع وظهره قد ضرب. فقالت: «ما الذي أرى بكَ يا قصير»؟ فقال: «زعم عمرو بن عدي أنني أغررت خاله وأقنعته بالمسير إليكِ. ففعل بي ما ترين. فأقبلت اليك». عندها لاطفته الزبّاء واكرمته وأدركت ما عنده من الحزم والرأي والتجربة والمعرفة بأمور المُلك.

ولما أدرك أنها وثقت به طلب منها إذناً بالذهاب الى العراق لجمع أمتعته وأمواله، وأقنعها بأنه سيحمل اليها من طرائف ثيابها، تبيعها وتصيب منها أرباحاً هائلة.

ولما أذنت له، إنطلق الى العراق، ودخل متنكراً على عمرو بن عدي، فأخبره بالخبر، فأعطاه حاجته، وجهزه بأفخر الثياب وغيرها ولما رجع الى الزبّاء محمّلاً بما يرضيها، إزدادت ثقة به واطمأنت اليه.

كرر قصير رحلاته الى العراق. وكان يعود في كل مرة محملاً بأفخر الثياب. وفي المرة الثالثة، عاد الى العراق ودخل على عمرو وقال له: «إجمع لي أصحابك وجندك، وهيء لهم الغرائر والمسوح، فإذا دخلوا مدينة الزباء، أقمتك على باب نفقها، وخرجت الرجال من الغرائر، فصاحوا بأهل المدينة فمن قاتلهم قتلوه، وإن أقبلت الزبّاء تريد النفق جللتها بالسيف».

طبّق عمرو ما طلب منه قصير، ثمّ وجّه الابل الى الزبّاء عليها الرجال وأسلحتهم. فلما باتوا على مقربة منها، تقدم قصير اليها، وبشّرها، وأعلمها بأنه يحمل اليها أفخر الثياب، وطلب منها أن تخرج، فتنظر الى الاحمال. فخرجت الزبّاء وأبصرت الإبل تكاد قوائمها تصل الى الارض من ثقل احمالها. فقالت: يا قصير:

ما للجمال مشيها وئيداً

أجَندلا يحملن أم حديداً

أم صرفاناً بارداً شديداً.

ولما دخلت الابل المدينة، ووصلت الى وسطها خرج الرجال من الغرائر، وصاحوا بأهل المدينة، وشهروا أسلحتهم، ووقف عمرو بن عدي على باب النفق. وأقبلت الزباء تريد الدخول الى النفق، بعدما رأت بأم عينها ما حدث لأهلها ولأبناء مدينتها، فأبصرت عمرو، وعرفته من خلال الصورة التي صوّرها لها المصوِّر الخاص بها، فمصّت خاتمها وكان فيه سُمّ، وقالت: «بيدي لا بيدك ياعمرو». وتلقاها عمرو بن عدي فجللها بالسيف وقتلها، وأصاب ما أصاب من أهل المدينة، وانكفأ عائداً الى العراق.

تركت الزباء وراءها مملكة مترامية الاطراف، امتدّت من الفرات الى بحر الروم، ومن صحراء العرب الى آسية الصغرى، واستولت على مصر مدة.

وفاتها كانت حوالى سنة ٢٨٥ م.

المراجع

١ - اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تأليف عمر رضا كحاله، الجزء الثاني. منشورات مؤسسة الرسالة.

٢ - الاعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. المجلد الثالث منشورات دار العلم للملايين.

زبيدة بنت جعفر

في عهد الدولة العباسية كانت اللؤلؤة الساطعة حضارة وعمرانا وادبا وشعرا. وفي قصر الرشيد كانت مصدر النبل الخلقي وموطن الرعاية في قلوب بني العباس، سيرتها سيرة العظماء واعمالها زينت التاريخ بالفن والرقي.

تلك هي زبيدة بنت جعفر، حفيدة المنصور، زوجة الرشيد وام الامين، في قصر والدها ابو جعفر المنصور نشأت زبيدة وترعرعت، فكانت سيدة عصرها كرما وانفتاحا. خصها أبو جعفر المنصور بكل الحب والرعاية. دعاها زبيدة لما رأى شخصيتها المتفجرة نعومة والمتوقدة ذكاء اضافة الى بنيتها القوية فغلبت عليها هذه الكنية على اسمها الحقيقي امة العزيز.

فزاد اعتزازاً وفخرا بها يوم زفها عمها المهدي الى ابنه الرشيد. وكان هذا اليوم اقرب الى الخيال منه الى الواقع نظرا الى الابهة والجلال اللذين جعلا من هذا الزفاف اسطورة تناقلتها الاجيال في ما بعد.

ففي اثناء مرور موكب زبيدة في طريقها الى قصر الرشيد. نثر عليها من اللآلىء الثمينة ما أثقلها واعاق سيرها، وفرشت الطرقات بالبسط الموشاة بأسلاك الذهب.

وفي قصر الرشيد كانت زبيدة ربة القول والفصل في قصره وفي قلبه ودولته. عاشت قريبة من الادباء والشعراء الذين لقوا في قصر الرشيد وفي قلبه الرعاية والكرم والعطاء اللامحدود.

كان الرشيد من اكثر الخلفاء بحثاً في الشعر. ونظماً له. سأل اهل مجلسه مرة عن صدر هذا البيت:

«ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبه»

فلم يعرفه احد. وكان الاصمعي مريضاً راقداً في منزله، فأرسل اليه اسحق الموصلي ومعه الف دينار. فجاءه الجواب ان البيت من قصيدة لأبي النشناش النهشلي وهذا صدره:

«وسائلة اين الرحيل وسائل

ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبه»

كثيراً ما كان الرشيد يعقد المجالس للبحث في معنى بيت:

«قتلوا ابن عفان الخليفة محرما

ورعا فلم ار مثله مخذولا»

وكان في المجلس الكسائي والاصمعي، فطال الجدال بينهما والخليفة يسمع ويناقشهما. وفي احد مجالسه اعطى الرشيد الفضل خاتما قيمته ١٦٠٠ دينار مكافأة له على احسن بيت شعر قاله العرب في الذئب. وولّى المأمون ابن الجهم البرمكي ولاية من اجل بيت طلبه منه واشترط عليه ذلك. وكم من شعر رفع السيف عن الرقاب ودفع الرشيد الى العفو والغفران. كما فعل مالك بن طوق وكان حكم عليه بالاعدام فقال للرشيد شعرا فعفا عنه. كذلك رفع الرشيد السيف عن ربيعة، واحسن اليه بعد سماعه ابياتاً قالها منصور النمري استعطفه بها.

وسط هذه الاجواء المفعمة بالشعر، والمعرفة عاشت زبيدة، وكانت توزع اوقاتها بين الزوجة والام (ام الامين) والشاعرة والاديبة. تجدر الاشارة الى ان زبيدة احبت ابنها الامين حبا جما وهيأت له العوامل المؤاتية لوصوله الى عرش الخلافة. وعندما ذكر الرشيد البيعة لابنه المأمون اغتمت غما شديداً وعاتبته.

حب زبيدة لابنها الامين دفعها الى قول اجمل القصائد التي تناقلها الرواة جيلا بعد جيل.

عندما توفيت زوجة الامين حزن عليها حزناً شديداً بلغ زبيدة يأس إبنها وملبيته فهرعت اليه باكية وقالت له:

نفسي فداؤك لا يذهب بك اللهف

ففي بقائك ممن قد مضى خلف

عُوِضْتَ موسى فهانت كل مرزئة

ما بعد موسى على مفقودة أسف.

كان الامين يقابل عطف والدته وحنانها، بتعظيمها وتبجيلها. وكان شجاعاً كبير النفس تدل على ذلك كلماته التي فاه بها لأمه عندما احيط بالعدو (شقيقه المأمون الذي شن عليه حربا للاستئثار بالخلافة) دخلت عليه زبيدة باكية، فقال لها الامين: «ليس بجذع النساء وهلعهن عقدت التيجان، والخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع وراءك». ولما قتل الامين على يد شقيقه المأمون قالت زبيدة:

«اودى بالفين من لم يترك الناسا

فإمنح فؤادك عن مقتولك الباسا

لما رأيت المنايا قد قصرن له

اصبن منه سواد القلب والراسا

فبتّ متكئا ارعى النجوم له

اخال سنته في الليل قرطاسا

والموت كان به والهم قارنه

حتى سقاه التي أودى بها الكاسا

رزئته حين باهيت الرجال به

وقد بنيت به للدهر اساسا

فليس من مات مردوداً لنا ابدا

حتى يرد علينا قبله ناسا

يروى انه على اثر مقتل الامين، دخل على زبيدة بعض خدمها وقالوا لها:

«ما يجلسك وقد قتل الامين» فقالت «وما اصنع؟» فقالوا «تخرجين طلبا للثأر كما خرجت عائشة تطالب بدم عثمان» فقالت «ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الابطال» ثم امرت باحضار الثياب السوداء فارتدتها وبدواة وقرطاس كتبت الى المأمون:

«لخير إمام قام من خير عنصر

لوارث علم الاولين وفهمهم

وللملك المأمون من ام جعفر

كتبت وعيني مستهل دموعها

إليك إبن عمي من جفوني ومحجري

وقد مسَّني ضر وذلّ كآبة

وأرقّ عيني يا ابن عمي تفكري

وهمتُ لما لاقيت بعد مصابه

فأمري عظيم منكر حدّ منكر

سأشكو الذي لاقيته بعد فقده

اليك شكاة المستهام المقهر

وارجو لما قد مرّ بي منذ فقدته

فأنت لبثي خير رب مغير

اتى طاهر لا طهّر الله طاهرا

قما طاهر فيما اتي بمطهّر

فاخرجني مكشوفة الوجه حاسرا

وانهب اموالي واحرق أدري

يعزُّ على هارون ما قد لقيته

وما مرَّ بي من ناقص الخلق اعور

فإن كان من اسدى بأمر امرته

صبرت لأمر من قدير مقدر

تذكّر امير المؤمنين قرابتي

فديتك من ذي حرمة متذكر

لما قرأ المأمون شعرها بكى.

فتحت زبيدة الشاعرة قلبها وابواب قصرها في بغداد تماماً كزوجها الرشيد الى الشعراء والمغنين، وقد حدَّث عمرو بن بانة عن هذا الامر فقال: «كنا في دار ام جعفر جماعة من الشعراء والمغنين فخرجت جارية لزبيدة وكمها مليء بالدراهم فقالت: ايكم القائل:

من ذا يعيرك عينه تبكي بها

أرأيت عينا للبكاء تعار

فأومىء الى العباس بن الاحنف فنثرت الدارهم في حجره»

اما زبيدة الزوجة فكانت مثال الوفاء والنبل والرعاية للخليفة. بلغها مرة ان الرشيد جالس وحده وليس معه احد من الندماء او المسامرين. فارسلت اليه قائلة: يا

امير المؤمنين اني لم ارك منذ ثلاث وهذه اليوم الرابع. فأرسل اليها قائلا: «عندي إبن جامع» فارسلت اليه «انت تعلم إني لا أهنأ بسماع الا اذا شاركتني فيه فما كان عليك الا ان اشركك في الذي انت فيه».

فأرسل اليها «اني سائر اليك الساعة» فجاءها الرشيد وجالسها وأمر جامع بأن يغني فغنى:

ما رعدت رعدة ولا برقت

لكنها انشأت لنا خلقه

الماء يجري نظام له

لا يجد الماء مخرقا خرقه

بتنا وباتت على نمارقها

حتى بدا الصبح عينها ارقه

إن قيل إن الرحيل بعد غد

والدار بعد الجميع مفترقة

استعذبت زبيدة صوته وقصيدته فأمرت خادمها بان يمنح ابن جامع مائة الف درهم عن كل بيت. لم تقصر زبيدة عطفها على الشعراء والمغنين والاطباء، بل شملت الفقراء والمساكين وارباب التقوى والصلاح والعلماء كان لها مائة جارية يحفظن القرآن الكريم وكان يُسمع في قصرها دوي كدبيب النحل من قراءة القرآن.

في خضم الحياة التي عاشتها زبيدة في قصر الخليفة، لم تنسَ الاهتمام بالعمران. وبلغ عدد المساكن والمنازل على طريق مكة المكرمة ما يفوق الوصف الا ان الحدث الاهم كان عين زبيدة، الذي يبقى الى اليوم الأثر الصالح الذي يجمع بين الجمال والافادة والذوق الرفيع.

لم يكن لأهل مكة المكرمة من المناهل الا ما يجود به المطر احيانا وبعض الآبار

التي تفيض آناً وتجف آنا. اما الحجاج، فكانوا يحملون في طريقهم الى الحج قُرب الماء التي تكسر ظهورهم. واذا نقص الماء عندهم كانوا يشترون راوية الماء بدينار. وكان الكثير من الحجاج الفقراء يموتون على الطريق من الظمأ.

في اثناء حجها الى مكة المكرمة، ادركت زبيدة هذا الواقع الصعب فعزمت على حفر نهر جار يتصل بمنابع الماء ومساقط المطر، حتى ولو كان سبيله دجلة والفرات. لم يكن يخطر ببال احد منذ عهد اسماعيل حتى عهد زبيدة ان يحفر نهرا جاريا وسط مكة المكرمة اما زبيدة التي تتحكم بخراج الدولة الاسلامية ولها من المال والجواهر ما لا تستطيع حصره الارقام، قررت بفيض من حنانها وعاطفتها ان توفر على الحجاج كارثة الموت على طريق مكة. فاستدعت خازن اموالها وامرته بدعوة العرفاء والمهندسين والعمال من اطراف الدنيا واقاصي الارض. فأسر اليها خازن اموالها بالتكاليف الباهظة التي قد يستنفدها هذا المشروع، فأجابته بعبارتها «إعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً» وهكذا بدأ العمل وانطلق وقد جندت له زبيدة مئات العمال والمهندسين، وراحوا يَصِلُون بين منابع المياه في الجبال ويحفرون الآبار ويتغلغلون بين الصخور احيانا وفي اعماق الارض احيانا اخرى الى ان توصلوا الى حفر النهر. «من اهم الأعين التي اعتمدوا عليها، كانت عين حنين في جبال طاد الى الشمال من عرفه، وتبعد خمسة وثلاثين كيلومترا عن مكة المكرمة، وتجري في وادي حنين، ثم ربطوها بمجرى آخر من وادي النعمان من مسايل جبال كسرى الى الشرق والجنوب من جبال عرفات، وعززوا المجريين بسبع اقنية تبعوا فيها مساقط السيل، وسار ذلك كله في ممر كبير بين الصخور وينحدر في خزان عميق حفروه في الجبل وسموه بئر زبيدة. ومن هناك يسير الماء في فرعين يذهب احدهما الى عرفات وينتهي الآخر الى مسجد نمرة. ولهذه العين موادع في اعماق ارض مكة يخزن الماء فيها.

وصف اليافعي في القرن الثامن للهجرة عين زبيدة فقال: «ان آثارها باقية ومشتملة على عمارة عظيمة عجيبة مما يتنزه برؤيتها على يمين المذاهب الى منى من مكة ذات بنيان محكم في الجبال تقصر العبارة عن وصف حسنه. ينزل الماء منه الى

موضع تحت الارض عميق ذي درج كثيرة جدا لا يوصل الى قراره الا بهبوط كالبير يسمونه لظلمته يفزع بعض الناس إذا نزل فيه وحده نهاراً فضلا عن الليل» بلغت نفقات العين في خلال ستين يوما اربعة وخمسين الف الف درهم. ولما رفع وكيل زبيدة حساب النفقة قالت له: «ثواب الله بغير حساب».

قال إبن جبير بعدما ذكر المصانع والبرك والآبار والمنازل بين بغداد ومكة «ان كل ذلك من آثار زبيدة فانتدبت لذلك حياتها، فأبقت في هذه الطريق مرافق ومنافع تعمّ وفد الله تعالى كل سنة ولولا آثارها في ذلك لما سُلكت هذه الطريق والله كفيل بمجازاتها والرضى عنها.

ينسب الى زبيدة مسجد زبيدة ام جعفر في بغداد. وكان قريبا من مسجد الشيخ معروف الكرخي تهدم العام ١١٩٥ هـ. وكان هذا المسجد واسعا جميل البناء قوي الاركان. ولما بنى سليمان باشا الكبير والي بغداد سور الجانب الغربي إستعملت انقاضه في بناء السور. ولم يبق منه الى اليوم سوى قبر زبيدة تتوّجه قبلة مخروطية الشكل من نوادر الفن المعماري.

ينسب الى زبيدة ايضاً «المُحْدَث» وهو منزل في طريق مكة بعد النقرة على ستة اميال منها فيه قصر وقباب متفرقة وبركة وبئر عذب المياه، وينسب اليها «العناية» وهي بركة ضخمة ماؤها مالح. «والقنيعة» وهي بركة بين الثعلبية والخذيمية على طريق مكة، و«الحسني» وهي بئر على نحو ستة اميال من قروري قرب معدن النقرة والزبيدية وهي بركة بين المغيثة والعذيب وفيها قصر ومسجد شيدتهما زبيدة.

وزبيدة كانت رائدة في الابتكار وفي الافراط في الاناقة. فهي اول من إبتكر الآلة الموشاة بالذهب والفضة والمكللة بالجواهر، وأول من ارتدت الثياب الموشاة بالذهب والمرصعة باللآلىء. واول من زيّن القباب بالفضة والأبنوس والصندل، وأول من ارتدت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر. فتحولت الى مثال الكمال والجمال والاناقة في عصرها، وتشبّه الناس بها وصاروا يلقبون المرأة المكتملة الافعال بزبيدة.

توفيت زبيدة في بغداد في جمادى الاولى سنة ٢١٦ هـ. ورثاها مسلم بن عمرو الخاسر الشاعر البصري. رحلت زبيدة بالجسم وبقيت حية في عقول بني العباس وفي قلوبهم، يتندرون حول اخبارها وشهامة اخلاقها وثقافتها المميزة التي تفوقت بها على الكثير من علماء جيلها والشعراء. وبقي الرواة يتناقلون في مجالسهم في ارجاء الجزيرة العربية افعال هذه السيدة الجليلة، وخصوصا أخبار مسامحتها المأمون، وهو الذي قتل وحيدها وفلذة كبدها الامين، اذ استقبلته على ابواب بغداد قائلة: «اهنيك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك قبل ان أراك. ولئن كنت فقدت إبناً خليفة فقد عُوضْتُ إبناً خليفة لم ألده وما خسر من اعتاض مثلك ولا ثكلت ام ملأت يدها منك وأنا اسأل الله أجراً على ما اخذ وإمتاعاً بما عوض».

بلغت شهرة زبيدة الاقطار العربية، وكان الناس يتوقون الى رؤية موكبها والنظر الى وجهها المشع بهاء، وشخصيتها الفائضة كرماً فكان يقصدها العلماء لمناقشتها في دراساتهم وكانوا يلمسون عندها الرأي السديد والحكيم والقول النافذ. وكانت تعطف على المتفوقين وتمنحهم رواتب شهرية، ومنهم الطبيب المشهور جبرائيل بختيشوع.

هذه السيدة العظيمة التي امنت سبل الحج الى الفقراء والاغنياء على السواء بقيت آثارها وسيرتها تحكي قصة إمرأة جعلت من حياتها وسيلة للعطاء ومن اموالها مادة للنبوغ والابداع والعمران والحضارة فاستحقت عن جدارة لقب النجاح. ابرزتها المؤلفات والكتب والموسوعات على مرّ العصور كرائدة ومجلية ومتفوقة.

المراجع

١ ـ تاريخ التمدن الاسلامي. تأليف جرجي زيدان طبعة ١٩٨٢. منشورات دار الجيل ـ بيروت.

٢ ـ تاريخ آداب اللغة العربية. تأليف جرجي زيدان طبعة ١٩٨٢ منشورات دار الجيل. بيروت.

٣ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تاليف عمر رضا كحالة الجزء الثاني الطبعة الثالثة. منشورات مؤسسة الرسالة بيروت.

٤ ـ المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها الجزء الثاني تأليف عبد الله عفيفي الطبعة الثانية ١٩٨٢. منشورات دار الرائد العربي بيروت.

سلامة

«سلامة القس» إسم لمع في سماء الشعر العربي والغناء، وبقي خالداً تتناقل إبداعه الأجيال.

سلامة هي مولّدة من مولدات المدينة، نشأت فيها وأخذت الغناء عن معبد وإبن عائشة وجميلة ومالك بن أبي السمح وذويه، فأبدعت، واتقنت العزف على الآلات الموسيقية ونظمت أجمل القصائد.

سميت «سلامة القس»، لأن عبد الرحمن بن أبي عمّار الجشمي من قراء مكة والملقّب بالقس لعبادته، شغف بها، فغلب عليها لقبه.

قال عنها المدائني: كانت سلامة مغنية حاذقة جميلة، ظريفة، تقول الشعر، وما رأيت خصالاً أربعاً اجتمعت في امرأة مثلها حسن غنائها وحسن وجهها، وحسن شعرها.

يروى أن القس عبد الرحمن بن ابي عمّار سمع مرة غناء سلامة على غير عمد منه. فبلغ غناؤها منه كل مبلغ. فرآه مولاها سهيل بن عبد الرحمن وقال له: «هل لك أن أخرجها اليك أو تدخل فتسمع»! فأبى. فقال له سهيل: «أنا أقعدها في موضع تسمع غناءها ولا تراها». فأبى. ولم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه. فغنّت، فشغف بها وشغفت به.

قال عنها الحسين بن يحيى:

«كانت حبابة وسلامة القس من القيان، وكانتا حاذقتين ظريفتين ضاربتين؛ وكانت سلامة أحسنهما غناء، وحبابة أحسنهما وجهاً، وكانت سلامة تقول الشعر،

وكانت حبابة تتعاطاه فلا تحسن...» لما قدم عثمان بن حيّان المرّي والياً، قال له قوم: «إنك وليت على كثرة من الفساد؛ فإن كنت تريد أن تصلحها طهّرها». الا أن عثمان أبى أن ينصت إلى القوم الذين كانوا يعتبرون الغناء من ضروب الشر، فزار سلامة، وتحدث إليها، فإذا بها من أعلم الناس، فأعجب بها. وقرأت له من الشعر وغنت:

«سددن خصاص الخيم لما دخلنه

بكل لبانٍ واضح وجبين»

إشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان بعشرين الف درهم. ولما خرجت من ملك أهلها طلبوا الى الرسل أن يتركوها عندهم أياماً ليجهزوها بالحلي والثياب والطيب. فقال لهم الرسل: «هذا كله معنا، لا حاجة بنا الى شيء». وأمروها بالرحيل. فخرجت وسط تشييع الأهل لها ولما بلغوا ساقية سليمان بن عبد الملك قالت للرسل: «قوم كانوا يغشونني ويسلمون علي، ولا بد لي من وداعهم والسلام عليهم». فتحلّق الناس حولها، فوقفت بينهم ومعها العود وغنّت:

«مارقوني وقد علمت يقينا

ما لمن ذاق ميتة من إياب

إن أهل الحصاب قد تركوني

مولعاً موزعاً بأهل الحصاب

أهل بيت تتابعوا للمنايا

ما على الدهر بعدهم من عتاب

سكنوا الجزع جزع بيت أبي

موسى إلى النخل من صفي السباب

كم بذاك الحجون من حي صدق

وكهول أعفة وشباب»

ولم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها. وكان يزيد يقول ما يقرّ عيني ما أوتيت من أمر الخلافة حتى اشتري سلامة وحبابة.

في قصر يزيد، تفتحت مواهب سلامة اكثر فأكثر، وسرعان ما تحولت الى لولب أشهر منتدى أدبي. إذ كان يجتمع في مجالسها الشعراء ينشدونها الشعر وتنشدهم. وكان يزيد معجباً بإبداعها وبفنها، فتح لها أبواب قصره لتستقبل أصحاب القلم والفكر.

وفي قصر يزيد أيضاً، تعرّف إليها الأحوص وأعجب بها وبحسن غنائها وبكثرة مجالسها الأدبية. إجتمع عندها مرة برفقة إبن قيس الرقيات، وراحا يمدحانها بأبيات شعرية. ومما قال فيها الأحوص:

«أسلام أنك قد ملكت فاسجحي

قد يملك الحرّ الكريم فيسجح

منّي على عان أطلت عناءه

في الغلّ عندك والعناة تسرح

إني لأنصحكم وأعلم أنه

سيان عندك من يغش وينصح

وإذا شكوت إلى سلامة حبها

قالت أجدّ منك ذا أم تمزح»

إعجاب يزيد المفرط بموهبتها الفذة ومحبته لها دفعا حبابة الى الغيرة منها والاستخفاف بها، فما كان من سلامة الا أن اعترضتها يوما وبادرتها الى القول: «إي أُخيّة نسيتِ لي فضلي عليك، ويلك أين تأديب الغناء وأين حق التعليم...»؟ فشعرت حبابة بالحرج وتأثرت بأقوال سلامة فأجابتها:

«صدقت والله لا عدت الى شيء تكرهينه». وعادت العلاقة بينهما الى سابق

عهدها من الود والصفاء إلى أن توفيت حبابة. كما أن إعجابه بها، دفع الكثير من المغنين إلى تقليدها وتبني اشعارها وألحانها. يروى في هذا المجال أن يزيداً بعث إلى الأحوص أن يأتيه، قبل هذا الاخير الدعوة وكان برفقته الغريض، فقال له: «أخرج معي حتى آخذ لك جائزة أمير المؤمنين وتغنّيه، فإني لا أحمل إليه شيئاً هو أحبّ إليه منك فلما دخلا على مجلسه راح الغريض ينشد له المدائح ومن أبرزها واحدة في سلامة:

«الا هاج التذكر لي سقاما

ونكس الداء والوجع الغراما

سلامة إنها همي ودائي

وشر الداء ما بطن العظاما

فقلت له ودمع العين يجري

على الخدين أربعة سجاما

عليك لها السلام فمن لصبّ

يبيت الليل يهذى مستهاما»

انتفض يزيد وأعجب به ودمعت عيناه وقال للأحوص: «إن هذا القول يزيد من مكانة سلامة في قلبي». وما لبث أن أرسل بطلبها، ولما أتت، ضرب لها حجاب فجلست، وعاود الغريض الصوت. ولما انتهى قالت:

«أحسن والله يا أمير المؤمنين، فإسمعه مني». فأخذت العود، فضربته وغنت الصوت، وكاد يزيد أن يطير فرحاً وإعجاباً. فاستبقى الغريض طول الليل يغنيه هذا الصوت والحان سلامة. ولما طلع الفجر، أمر له يزيد وللأحوص بمكافأة مالية، وغادر الغريض إلى دمشق.

وأقام الأحوص بعده أياماً ثم لحق به، وبعثت إليهما سلامة بالمال وبالكساء.

بقيت سلامة في قصر يزيد حتى وفاته. وكانت تعقد المجالس الأدبية في صورة مستمرة ولم تتوقف الا عندما رحل صاحب القصر. سلامة المعروفة بوفائها رافقت يزيداً في أوقات قوته وفي أوقات ضعفه على حد سواء، وهو على فراش الموت لم يجد قربه الا تلك الجارية التي اشتراها وحوّلها الى سيدة نجحت بفضل ذكائها وموهبتها في استقطاب الشعراء وفي جعل الرواة يتناقلون قصائدها.

يروي أحمد بن عبيد الله بن عمار، كيف تلقت سلامة خبر موت يزيد فقال: «قدمت في جماعة من قريش على يزيد بن عبد الملك، فنزلنا منزلا لاصقا بقصر يزيد، فكنا إذا أصبحنا بعثنا بمولّى لنا يأتينا بخبره. وكان يثقل عليه المرض يوما بعد يوم. وإنا لفي منزلنا ليلة، إذ سمعنا همسا من بكاء، ثم ما لبث ان زاد، ثم سمعنا صوت سلامة القس وهي رافعة صوتها تنوح وتقول:

«لا تلمنا إن خشعنا

أو هممنا بخشوع

قد لعمري بت ليلي

كأخي الداء الوجيع

كلما أبصرت ربعاً

خاليا فاضت دموعي

قد خلا من سيدٍ كا

ن لنا غير مضيع»

ثم صاحت وا أمير المؤمنين!

فعلمنا وفاته، فأصبحنا فغدونا في جنازته. وفي أثناء التشييع رثته سلامة بمرثية أخرى، ما سمع السامعون بأحسن منها ولا أشجى. وقد أبكت العيون وأحرقت القلوب. ومما قالت:

«يا صاحب القبر الغريب

بشأم في طرف الكثيب

بالشأم بين صفائح

صمّ ترصّف بالحبوب

لما سمعت أنينه

وبكاءه عند المغيب

أقبلت أطلب طبه

والداء يعضل بالطبيب»

ولما حضر الوليد بن يزيد، سأل سلامة أن تغنيه شعرها في يزيد. الا أنها لم تستطع إذ تهدج صوتها ودمعت عيناها. ولما أقسم عليها غنته. فما سمع بأحسن من ذلك. وقال لها. الوليد: «رحم الله أبي وأطال عمري وأمتعني بحسن غنائك يا سلاّمة».

سرعان ما تناقل الرواة مراثي سلاّمة نظراً لجمالها ومداعبتها القلب والعقل والروح. يروي يحيى بن علي بن يحيى قال:

«سمعت نائحة مدنية تقول:

«قد لعمري بتّ ليلي

كأخي الداء الوجيع

ونجي الهم مني

بات أدنى من ضلوعي

كلّما أبصرت ربعاً

دارساً فاضت دموعي...»

ولما سمعته منها، إستحسنته،

ورحت أترنّم به. فسمع أبي وقال: «ما تصنع بهذا»؟ قلت: «شعر قاله الأحوص وصنعه معبد لسلاّمة وناحت به سلاّمة على يزيد. ثم ضرب الدهر. فلما مات الرشيد إذا رسول أم جعفر قد وافاني فأمرني بالحضور. فسرت إليها؛ فبعثت إلي: إني قد جمعت بنات الخلفاء وبنات هاشم لننوح على الرشيد في ليلتنا هذه؛ فقل الساعة أبياتاً رقيقة واصنعهن صنعة حسنة حتى أنوح بهن. فأردت نفسي على أن أقول شيئاً فما حضرني وجعلت ترسل إلي تحثني، فذكرت هذا النوح، فرأيت أني أصنع شيئاً».

هكذا، كانت سلامة من الرائدات في الشعر والغناء، يتناقل الشعراء والرواة قصائدها، خصوصاً في المراثي نظراً لرقتها ولشفافيتها ولجودتها لدرجة قال عنها الزبيري: «ما رأيت من القيان فتاة ولا عجوزاً أحسن غناء من سلاّمة».

المراجع

١ ـ كتاب الأغاني. تأليف أبي الفرج الاصبهاني. المجلد الثامن دار إحياء التراث العربي.

٢ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. الجزء الثاني. تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة.

سلامة الزرقاء

مغنية اشتهرت بإجادتها الغناء. إشتراها محمد بن سليمان والي الحجاز بمائة الف درهم. وقال فيها محمد بن الاشعث:

أمسى لسلامة الزرقاء في كبدي

صدع مقيم طوال الدهر والابد

لا يستطيع صناع القوم يشعبه

وكيف يشعب صدع الحب في كبدي

ذاع صيت محمد بن الاشعث، وخصوصا قصائده في سلامة الزرقاء، وصار يتندّر بها الشعراء.

وكان إبن الاشعث كثير التردد على منزل إبن رامين يسمع غناء جاريته سلامة الزرقاء، ويقول فيها أجمل القصائد.

ويروي سليمان الخشاب حول هذا الامر، فيقول: «دخلت منزل إبن رامين، فرأيت الزرقاء جاريته وهي وصيفة، وإبن الاشعث الكوفي، يلقي عليها قصيدة يقول فيها:

أية حالٍ يا إبن رامين

حال المحبين المساكين

تركتهم موتى وما موّتوا

قد جرٍّعوا منك الامرين

وسرت في ركب على طيّة

ركب تهامٍ ويمانين

يا راعي الذود لقد رعتنا

ويلك من روعِ المحبين

فرّقتُ جمعاً لا يُرى مثلهم

فجّعتهم بالربرب العين.

ويروي أيضاً معاذ بن الطّبيب: «أتيت إبن رامين وعنده جواريه، الزرقاء وصواحباتها، وعندهنّ فتى حسن الوجه، نظيف الثياب، يلقي عليهن الشعر. فسألت عنه فقيل لي: «هَذا محمد بن الاشعث بن فجوة الزهرى. فمضيت به الى منزلي وسألته المقام ففعل، وأتيته بطعام وشراب وغنيته اصواتاً من غناء أهل الحجاز، فسألني أن القيها عليه، فقلت: نعم وكرامة وحباً، على أن تلقي عليّ أصواتاً من صنعتك التذّ بها، وأقطع طريقي برواياتها، واطْرِف أهل بلدي بها. ففعلت وفعل، فكان مما أخذته عنه من صنعته:

صاحَ إنّي عاد لي ما ذهبا

من هوى هاج لقلبي طربا

أذكَرْتني الشّوق سلامة أن

لم أكن قضّيت منها أربا

وإذا مالام فيها لائم

زاد في قلبي لحبي عجبا

من ذوات الدَّلِّ لو دب على

جلدها الذَّرُّ لأبدى ندبا

إجتمع مرّة عند إبن رامين معن بن زائدة، وروح بن حاتم، وإبن المقفّع. ولما غنّت الزرقاء، أعجب بغنائها معن، فأهداها كيس فيه عشرة آلاف درهم، كذلك فعل روح. ولم يكن عند إبن المقفّع دراهم، فأهداها صكّ ضيعته وقال: «هذه عهدة ضيعتي، خذيها، فأما الدراهم فما عندي منها شيء».

ولما اشتراها محمد بن سليمان، اخفاها فترة عن والده، وكان هذا الاخير واليا على البصرة في خلافة المنصور. ولما علم بأمر ولده سخط سخطاً شديداً. عندها أمر محمد خادماً له، فأخرجها الى سليمان. ولما رأته سلامة، اكبّت على رأسه وقبّلته، ودعت له، وكانت عاقلة، مقبولة، متكلمة، فأعجبه ما رأى منها، ولم يعد الى معاتبة إبنه بعد ذلك.

ولما دخل عثمان بن حيان المري المدينة والياً عليها، إجتمع الاشراف عليه من قريش والانصار فقالوا له: «إنك لا تعمل عملاً أجدى ولا أولى من تحريم الغناء والرثاء». ففعل. وبعد أيام، قدم إبن أبي عتيق الى سلامة الزرقاء وطلب منها أن تغني له، فقالت: «أو ما تدري ما حدث؟» واخبرته الأمر. فتوجه في الحال الى عثمان واعلمه بأن شخصاً يريد زيارته للسلام عليه وقال له: «إن أفضل ما عملت به، تحريم الغناء والرثاء». فأجابه عثمان: «إن أهلك أشاروا علي بذلك. عندها قال له إبن أبي عتيق: «إنك قد وفقت، ولكني رسول إمرأة اليك تقول: قد كانت هذه صنعتي فتبت الى الله منها، وأنا اسألك أيها الامير أن لا تحول بينها وبين مجاورة النبي. فقال له عثمان: إذن أدعها للحضور.

أمرها إبن أبي عتيق، فتقشفت وأخذت سبحة في يدها وتوجهت اليه، فحدثته عن مآثر آبائه. اعجب بها الامير، ودهش من سحر كلامها وقوة حجتها. عندها قال لها إبن أبي عتيق: «إحدي للأمير». فحرّكه حداؤها، ثم قال لها: غيّري للأمير. فازداد عثمان إعجاباً بها. عندها قال له إبن أبي عتيق: «فكيف لو سمعتها في صناعتها!» فقال:

قل لها فلتقل. فأمرها فغنت:

سددن خصاص الخيم لما دخلنه

بكلّ لَبانٍ واضحٍ وجبينِ

صفَّق لها عثمان بن حيان طويلاً وقال:

«والله ما مثلك يخرج عن المدينة». فقال له إبن أبي عتيق: إذاً يقول الناس، أذن لسلامة في المقام ومنع غيرها. عندها بادره عثمان الى القول: قد أذنتُ لهم جميعاً.

المراجع

١ ـ كتاب الأغاني. تأليف أبي الفرج الاصبهاني. المجلد الخامس عشر. منشورات دار إحياء التراث العربي.

٢ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. الجزء الثاني. تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة.

شارية

شارية، كانت مغنية مولدة من مولدات البصرة، اشتهرت في كونها احسن الناس غناء.

اشترتها امرأة هاشمية بصرية فأدّبتها وعلمتها الغناء، ثم اشتراها ابراهيم بن المهدي، فأخذت عنه اصول الغناء. وفي رواية ان مولاتها الهاشمية حملت شارية الى بغداد لتبيعها فعرضت على اسحاق بن ابراهيم الموصلي فدفع فيها ثلاثمائة دينار، ثم جيء بها الى ابراهيم بن المهدي، فعرضت عليه، فساوم بها. فقالت له مولاتها: «قد بذلتها لاسحاق بن ابراهيم بثلاثمائة دينار، وأنت ايها الامير، اعزّك الله، بها احق» فقال «زنوا لها ما قالت». فوزن لها، ثم دعا بقيمته، وقال: «خذي هذه الجارية ولا ترينيها سنة، وقولي للجواري يطرحن عليها».

وبعد مضي عام كامل، انصرفت خلاله شارية الى اتقان الشعر والغناء، اخرجت الى الامير، فنظر اليها وسمعها، فأرسل الى اسحاق بن ابراهيم الموصلي، فدعاه وأراه اياها وأسمعه غناءها وقال: «هذه جارية تباع فبكم تأخذها لنفسك؟» فقال اسحاق: «بثلاثة آلاف دينار وهي رخيصة بها». فقال له ابراهيم: «اتعرفها؟ هذه الجارية التي عرضتها عليك الهاشمية بثلاثمائة دينار فلم تقبلها.

فتعجب اسحاق من حالها وما انقلبت عليه.

كانت شارية حسنة الملامح حلوة المعشر طيبة القلب على عكس امها التي عرفت بخبثها وسوء طباعها وذهبت الى حد انها كانت تساوم ابراهيم، وتهدده بأنها على استعداد لاسترداد ابنتها اذا لم ينفذ لها مطالبيها. اعجب ابراهيم بشارية اعجابا

كبيرا. ملكها مدة سبع سنوات ورباها تربية الولد، وكان يعتني بها اعتناء عظيما ويفاخر بها وبأدائها وحسن معشرها.

حدّث حمدون بن اسماعيل عن هذا الامر فقال انه دخل على ابراهيم يوما فقال له هذا الاخير: اتحب ان اسمعك شيئا لم تسمع مثله قط؟

قال: نعم.

قال ابراهيم: هاتوا شارية.

فخرجت، فأمرها أن تغني لحن اسحاق «هل بالديار التي قد جئتها احد».

فقال: لا والله يا سيدي ما سمعت هذا قط.

فقال ابراهيم: اتحب أن تسمعه احسن من هذا؟

فقال: لا يكون.

فقال ابراهيم: بحياتي يا شارية قوليه واحيلي حلقك به (اي حوّلي حلقك في اثناء الغناء من حال الى حال، ارتفاعا وانخفاضا).

كانت شارية اذا اضطربت في صوت، يعاقبها ابراهيم بجعلها تعيد الصوت وهي جاثية على رجليها. وان لم تبلغ مراده، كان يستعين بجارية اخرى تدعى ريق، ويطلب منها اداء اللحن والضرب على العود.

تحدثت ريق عن شارية فقالت:

كان مولاي ابراهيم يسمي شارية ابنتي ويسميني اختي. وتحدث جحظة بدوره عن شارية فقال: «كنت عند المعتمد يوما فغنته شارية بشعر مولاها ابراهيم بن المهدي ولحنه:

«يا طول علة قلبي المعتاد

الف الكرام وصحبة الأمجاد»

حدّث عمرو بن بانة، قال: «حضرت يوما مجلس المعتصم، وضربت الستارة، وخرجت الجواري، وكنت الى جانب مخارق. فغنت شارية واحسنت. فقلت لمخارق: هذه الجارية في حسن الغناء على ما تسمع، ووجهها وجه حسن، فكيف لم يتزوج منها ابراهيم بن المهدي؟ فقال لي: احد الحظوظ التي رفعت لهذا الخليفة منع ابراهيم إبن المهدي من ذلك».

بقي المعتصم على ابراهيم حتى باعه شارية، وبقيت في داره الى أن توفي.

عن هذا الأمر تحدثت ريق فقالت: «استزار المعتصم من ابراهيم بن المهدي جواريه، كان في جفوة من السلطان تلك الايام، فنالته ضيقة. فتحمل ذهابنا اليه على ضعف، فحضرنا مجلس المعتصم ونحن في ثياب مرقعة، فجعلنا نرى جواري المعتصم وما عليهن من الجوهر والثياب الفاخرة، فلم تستجمع الينا انفسنا حتى غنوا وغنينا، فطرب المعتصم على غنائنا، رآنا امثل من جواريه، فأمر لنا بمائة ألف درهم».

بقيت شارية احسن الناس غناء منذ توفى المعتصم الى آخر خلافة الواثق، ويقال انها لم تضرب بالعود الا في ايام المتوكل عندما اتصل الشر بينها وبين عريب.

وبعد وفاة المعتصم، انتقلت شارية الى دار الواثق، وكان بدوره معجبا بها وبغنائها، وكان يسميها سيدتي. وفي بلاط الواثق، لم تجد الغناء فحسب، بل راحت تلقن اصوله الى كل من رأت فيهن موهبة الاداء الرفيع، ومنهن فريدة. فانصرفت الى تلقينها المبادىء ولم تبخل عليها بأي من تجاربها الى ان اختلفتا مرة في حضرة الواثق، فحلفت انها لا تنصحها ولا تنصح احداً بعدها. ولم تكن تطرح بعد ذلك صوتا الا نقصت من نغمه.

كانت شارية من اكرم الناس، ولم تكن تتورع عن مد يد المساعدة الى كل محتاج.

يروى أن أبا الحسن علي بن الحسين اقترض منها على غير رهن عشرة آلاف

دينار، ومضت اكثر من سنة ولم يعد المال الى صاحبته، ولم تطالبه هي، الى ان رده في نهاية المطاف.

بلغت شهرة شارية الى حد نافست عريب وتفوقت عليها. وكان اهل سر من رأى متحازبين. قوم مع شارية وقوم مع عريب. فلا يدخل اصحاب هذه مع هؤلاء ولا اصحاب هذه في هؤلاء. وكان ابو الصقر اسماعيل بن بلبل (احد وزراء الخليفة المعتمد) محازبا لعريب واراد ان يجلب الى صفه علي بن الحسين، فدعاه يوما الى مجلسه في حضور عريب. ولما بلغ الامر الى شارية، بعثت الى علي بن الحسين احدى جواريها وغنته:

لا تعودن بعدها

فترى كيف اصنع

ولما سمع علي الغناء ضحك وقال: لست أعود.

الى جانب الكرم وحسن الغناء، كانت شارية محط ثقة الخلفاء واحترامهم. وكان المعتمد احد هؤلاء، ولم يكن يأكل الا طعامها. فمكثت دهرا تعد له سلة صغيرة مستديرة فيها الكثير من صنوف الطيب والطعام اللذيذ، وكان طعامه منها في ايام المتوكل.

في رواية لجحظة قال: كنت عند المعتمد يوما، فغنته شارية من شعر ابراهيم بن المهدي ولحنه:

«يا طول علة قلبي المعتاد

الف الكرام وصحبة الامجاد

فأعجب بها المعتمد وامر لها بألف من افخر الثياب. فقال لي علي بن يحيى المنجم: اجعل انصرافك معي. ففعلت.

فقال لي: هل بلغك ان خليفة امر لمغنية بمثل ما امر به امير المؤمنين اليوم لشارية؟

قلت: لا.

فأمر باخراج سير الخلفاء، فأقبل بها الغلمان يحملونها في دفاتر عظام، فتصفحناها كلها، فما وجدنا احدا قبله فعل ذلك.

في حضرة المتوكل، غنت شارية ايضا واجادت وبدوره اعجب بها وانعم عليها ما تليق به موهبتها.

حدثت ملح العطارة قالت: غنت شارية يوما بين يدي المتوكل وانا واقفة مع الجواري:

بالله قولوا لي لمن ذا الرّشا

المثقل الردف الهضيم الحشا

اظرف ما كان اذا ما صحا

واملح الناس اذا ما انتشى

وقد بنى برج حمام له

ارسل فيه طائرا.. مرعشا...»

هزج المتوكل وطرب وقال لشارية: لمن هذا الغناء؟ قالت اخذته من دار المأمون، ولا ادري لمن هو. فقلت له: انا اعلم لمن هو. فقال: لمن هو يا ملح؟ فقلت: الشعر والغناء كله لخديجة بنت المأمون. فأطرق طويلاً ثم قال: لا يسمع هذا منك احد.

هذه محطات من حياة شارية، ناقلة الابداع ومبشرة بالفن وبالجمال اينما وجدت. بفضلها وصل الغناء الى ارفع مستوى من الجودة، وبفضلها انتشرت اجمل القصائد وتناقلها الرواة في دور الخلفاء، فكانت بحق رائدة من ابرز رائدات الحركة الادبية النشطة التي ساهمت في احياء الكلمة الحلوة وفي تناقلها عبر الاجيال.

المراجع

١ ـ كتاب الأغاني. تأليف أبي الفرج الاصبهاني. المجلد السادس عشر. منشورات دار إحياء التراث العربي.

٢ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

شجرة الدرّ

من أبرز الملكات في عصر الاسلام. لقبت بعصمة الدين: ملكة مصر. أصلها من جواري الملك الصالح نجم الدين أيوب. إشتراها في أيام أبيه، وحظيت عنده بمكانة رفيعة. ولما ولدت له إبنه خليل، اعتقها وتزوجها. كانت معه في البلاد الشامية، لما كان والياً على الشام. وعندما انتقل الى مصر، وتولى السلطة، كانت في بعض الاحيان تدير أمور الدولة عند غيابه في الغزوات. وكانت كما يقول إبن أياس: «ذات عقل وحزم، كاتبة، قارئة، لها معرفة تامة بأحوال المملكة. نالت من العزّ والرفعة ما لم تنله إمرأة لا قبلها ولا بعدها.

يسميها سبط إبن الجوزي «شجرة الدرّ». ويقول: «كانت تكتب خطاً يشبه خط الملك الصالح، فكانت تعلّم على التواقيع».

عنها، قال صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي في تاريخه: شجرة الدرّ أم خليل الصالحية كان يحبها الملك الصالح حبّاً عظيماً، ويعتمد عليها في أموره وفي مهماته. وكانت بديعة الجمال، ذات رأي وتدبير ودهاء وعقل...».

لما توفي الملك الصالح في المنصورة، كانت المعارك ناشبة بينه وبين الافرنج. فأخفت خبر موته، واستمرّ كل شيء على حاله. وكانت تقول: «السلطان مريض، لا يصل أحد اليه». ثم أخذت توقع عن السلطان مراسيم الدولة، وأرسلت بعض رجالها الى إبنه «توارنشاه»، وكان في حصن كيغا، فحضر. وحين علمت بوصوله الى القدس، انتقلت هي الى القاهرة. فبعث يهددها، ويطلب المال والجواهر، فخافت شرّه، وأرسلت بعض رجالها فقتلوه.

عندها قرّ رأي الاعيان على تولية شجرة الدرّ السلطنة، فعينت الامير عز الدين

أيبك وزيراً لها. وعملت منذ اللحظة الاولى لتوليها الحكم على إرضاء رعيتها، فمشت وفق سياسة محكمة أغدقت فيها العطاء الى الامراء، فكسبت بسرعة محبة الاعيان ومحبة الشعب، ورضي الناس عن حكمها.

اما الامير عز الدين أيبك، فكان لا يتصرف ولا يقطع في أمر، الا بعد اخذ موافقتها واستشارتها ومعرفة رأيها فيه وإرادتها.

كانت تصدر المراسيم وعليها توقيع شجرة الدرّ بخطها باسم والدة خليل. وفي أيام الجمعة، كان الخطباء في المساجد يبدأون خطبهم بالدعاء لله بأن يحفظ «الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل...»

وبلغ من سلطتها، أن أطلقت الملك فرنسيس، ملك الافرنج، بعد مراسلات كثيرة، واشترطت عليه أن يسلم دمياط للمسلمين. ولما عاد الى بلاده، وفى بوعده واعاد دمياط الى المسلمين بعدما بقيت في ايديهم أحد عشر شهراً.

كانت شجرة الدرّ من ربّات البرّ والاحسان فبنت مدرسة عرفت بمدرسة شجرة الدرّ، وحماماً عرف بحمام الستّ.

لم يدم حكمها سوى ثمانين يوماً. إذ لما علم الخليفة المنتصر بالله أبو جعفر وهو في بغداد، أن أهل مصر جعلوا على رأس السلطنة إمرأة، أرسل الى أمراء مصر يقول: «أعلمونا إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال ما يصلح للسلطنة، فنحن نرسل لكم من يصلح لها...» ولما بلغ شجرة الدرّ هذا القول، خلعت نفسها عن السلطنة برضاها، وأشار الامراء بأن يولّى عزّ الدين أيبك السلطنة، على أن يتزوج شجرة الدرّ. وهكذا كان، ولقب بالملك العزيز.

سيطرت شجرة الدرّ عليه، وبقيت هي الحاكمة الفاعلة انما بصورة غير مباشرة. وفي احد الايام، علمت أن زوجها ينوي الزواج من بنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فخشيت من أن يعمل على إبعادها، فأرسلت بعض رجالها وقتلوه خنقاً في الحمام.

لما طلع النهار، شاع الخبر، وأحدث اضطراباً شديداً في صفوف الناس. ووصل الخبر الى ابنه علي من زوجته الاولى. فأرسل رجاله، وأمر بالقبض عليها وسجنت في البرج الاحمر. وبعد فترة قصيرة، أرسلت والدته خدمها، فقتلوها، ودفنت في مقبرة بنتها لنفسها، بالقرب من مشهد السيدة نفيسة. وذلك حوالى سنة ١٢٥٧ م.

ولما تيقنت شجرة الدرّ أنها مقتولة لا محالة، سحقت مجموعة من الجواهر النفيسة في الهاون، لئلا يأخذها الملك المنصور بن المعز أيبك ووالدته، وذلك لشدة كرهها لهما.

وعلى رغم مدة حكمها القصيرة، الا ان شجرة الدر إستطاعت إرساء قواعد جديدة للحكم، مشى على هديها الملوك في ما بعد، واعترف لها الامراء والاعيان بقوة الادارة وحسن التدبير في رعاية شؤون الشعب.

المراجع

١ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الثاني. منشورات مؤسسة الرسالة بيروت.

٢ ـ الإعلام قاموس تراجم، لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي المجلد الثالث. منشورات دار العلم للملايين.

عائشة بنت طلحة

عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، من بني تيم بن مرة، اديبة، عالمة بأخبار العرب، فصيحة. امها ام كلثوم بنت ابي بكر الصديق، وخالتها عائشة ام المؤمنين. ولدت عام١٠١هـ.

اشتهرت عائشة بجمال الوجه، وكانت في مجالسها لا تحتجب ايمانا منها بأن الله وسمها بميسم جمال لا يمكن حجبه عن العيون.

تغنّى بها الشعراء والادباء، وتدافعوا في وصف جمالها وذكائها على السواء. رآها مرة ابو هريرة فقال: «سبحان الله كأنها من الحور العين».

ووصفت عزة الميلاء عائشة بنت طلحة فقالت: «فلا والله ان رأيت مثلها مقبلة ومدبرة... نقية الثغر وصفحة الوجه فرعاء الوجه...

تزوجت من ابن خالها عبد الله بن عبد الرحمن بن ابي بكر وولدت عمران. ولما توفي تزوجها مصعب بن الزبير وامهرها خمسماية الف درهم. وكان مصعب يهواها ويحترمها ويخشى غضبها خصوصا وانها عرفت بشراسة الخلق على غرار نساء بني تيم.

يروى ان عائشة غضبت على مصعب فشكا ذلك الى اشعب، فقال: ان رضيت؟ حكمك. قال: عشرة آلاف درهم. قال: هي تلك. فانطلق حتى اتى عائشة فقال: «فداءك، قد علمت حبي لك وميلي قديما وحديثاً اليك من غير منالة ولا فائدة، وهذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقي وترتهنين بها شكري. قالت: ويحك لا يمكنني ذلك. قال: وما عناك؟ قال: قد جعل لي الامير عشرة آلاف درهم ان رضيت عنه. قال:

بأبي فأرضي عنه حتى يعطيني ثم عودي الى ما دعوك الله وسوء الخلق. فضحكت منه ورضيت عن مصعب.

صارمت عائشة مصعبا مرة فطالت مصارمتها له وشقت ذلك عليها وعليه، وكانت لمصعب حرب، فخرج اليها ثم عاد وقد ظفر. فشكت عائشة مصارمته الى مولاة لها. فقالت: الآن يصلح ان تخرجي اليه. فخرجت وهنأته بالفتح وراحت تمسح التراب عن وجهه فقال لها مصعب: اني اشفق عليك من رائحة الحديد فقالت: لهو والله عندي اطيب من ريح المسك الاذفر.

كان مصعب من اشد الناس اعجابا بعائشة، ولم يكن لها شبه في زمانها حسنا ودماثة وجمالا ومتانة وعفة. دعت يوما نسوة من قريش، فلما جئنها، اجلستهن في مجلس قد نضد فيه الريحان والفواكه والطيب. وخلعت على كل امرأة منهن خلعة تامة من الوشي والخز. ودعت عزة الميلاء، ففعلت بها مثل ذلك، ثم قالت لعزة: هاتِ يا عزّة فغنينا، فغنتهن.

وكان مصعب قريبا منهن ومعه اخوان له، فدنا منهن والستائر مسبلة، فصاح: بارك الله فيك يا عزة.

وأرسل الى عائشة أن تأذن لها ان تغنيه صوتا. ففعلت. فخرجت عزّة اليه وغنّت في مجلسه حتى كاد يطير عقله فرحا. ثم قال لها: يا عزّة انك لتحسنين القول والوصف، وامرها بالعودة الى مجلسها. ولما قتل مصعب، تزوجها عمر بن عبد الله بن معمر. فمكثت عنده ثماني سنوات، ثم مات عام ٨٢ هـ. فندبته واقفة، ولم تندب احدا من ازواجها الا جالسة. فسئلت عن السبب، فقالت: كان اكرمهم عليّ وامسّهم رحما بي، واردت ان لا اتزوج بعده».

ويروى ان الشاعر النميري مرَّ بها، فسألته ان ينشدها شعرا مما قاله في زينب. فامتنع عليها وقال: تلك ابنة عمي وقد صارت عظاما بالية. قالت: اقسمت عليك بالله الا فعلت. فأنشدها قوله:

نزلن بفخ ثم رحن عشية

يلبّين للرحمن معتمرات

يخبئن اطراف الاكف من التقى

ويخرجن شطر الليل معتجرات

ولما رأت ركب النميري اعرضت

وكن من أن يلقينه حذرات

تضوع مسكا بطن نعمان اذ مشت

به زينب في نسوة خفرات.

فقالت: «والله ما قلت الا جميلا ولا وصفت الا كرما وطيبا وتقى ودينا. اعطوه الف درهم» وكان الحارث من الشعراء المعجبين بعائشة وقد قال فيها اجمل القصائد.

عرفت عائشة بالكرم ووصفت به وكانت لا تبخل مما لديها من اموال وجواهر امام كل سائل او طارق بابها. يروى ان بعد عودتها من الحج جاءتها الثريا واخواتها ونساء اهل مكة القرشيات وغيرهن. وكان الغريض معهن. فدخلت النسوة عليها، وامرت لهن بالثياب والجواهر. وكانت كل واحدة تخرج برفقة جاريتها محملة بما امرت لها به عائشة. لما خرجت النسوة قال الغريض: «اين نصيبي من عائشة؟» فقلن له: «اغفلناك وذهبت عن قلوبنا». فقال: «ما انا ببارح من بابها او آخذ منها، فانها كريمة بنت كرام واندفع يغني من شعر جميل:

تذكرت ليلى فالفؤاد عميد

وشطت نواها فالمزار بعيد

سمعت عائشة صوته بالباب، فأمرت بادخاله الى مجلسها. فدخل. ولما رأته ضحكت وقالت: لم اعلم بمكانك ثم دعت له بأشياء أمرت له بها، ثم قالت له: ان

غنيتني صوتا وفي نفسي فلك كذا وكذا. وسمت شيئا في نفسها، فغناها من شعر كثير:

وما زلت من ليلى لدن طرّ شاربي

الى اليوم اخفي حبها واداجن

واحمل في ليلى لقوم ضغينة

وتحمل في ليلى عليّ الضغائن

فقالت له: ما عددت ما في نفسي ووصلته فأجزلت.

كانت عائشة بنت طلحة عالمة بأخبار العرب واشعارها وايامها، فوفدت على هشام بن عبد الملك، فقال لها: ما اوفدك؟ قالت: حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق. فقال: اني اعرف حقك. ثم بعث الى مشايخ بني امية فقال: ان عائشة عندي. فحضروا، وما ذكروا شيئا من اخبار العرب واشعارهم الا افاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا غار الا سمته. فقال لها هشام: اما الاول فلا انكره، واما النجوم فمن اين لك؟ قالت: اخذتها عن خالتي عائشة. فأمر لها بمائة الف درهم وردها الى المدينة. توفيت عام ٧١٩ م. اي بعد نيف ومئة عام.

المراجع

١ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. المجلد الثالث منشورات مؤسسة الرسالة بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٢ ـ الاعلام، قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. المجلد الثالث. منشورات دار العلم للملايين. الطبعة السادسة ١٩٨٤.

٣ ـ كتاب الاغاني. تأليف ابي الفرج الاصبهاني. المجلد الحادي عشر. منشورات دار احياء التراث العربي.

عاتكة بنت يزيد بن معاوية

من ربات المجد والرفعة والعظمة والحسن الباهر، والجمال البارع،. كانت أعرق الناس في الخلافة، فوالدها خليفة، وجدّها معاوية خليفة، وشقيقها معاوية بن يزيد خليفة، وزوجها عبد الملك بن مروان خليفة، وأولادها: الوليد، وسليمان وهشام خلفاء.

شغلت في قلوب بني أمّية مكانة رفيعة، فأحبها زوجها عبد الملك بن مروان حباً عظيماً، وكان يأنس الى رأيها، ويعجب بقوه منطقها ويستشيرها في أمور الملك.

قال أبو عبيد عن حجاج عن أبي معشر: لما قدم مصعب بوجوه أهل العراق على أخيه عبد الله بن الزبير، فلم يعطهم شيئاً، أبغضوا إبن الزبير وكاتبوا عبد الملك بن مروان، فخرج يريد مصعب بن الزبير. أقبلت عاتكة إبنة يزيد بن معاوية مع جواريها، قبيل خروجه، وكانت قد تزينت بالحلى فقالت: يا أمير المؤمنين، لو قعدت في ظلال ملكك ووجهت اليه كلباً من كلابك لكفاك أمره. فقال: هيهات، أما سمعت قول الاول:

قوم إذا ما غزوا شدوا مآزرهم

دون النساء ولو باتت بأطهار.

فلما أبى عليها وعزم، بكت وبكى معها جواريها، فقال عبد الملك: قاتل الله إبن أبي ربيعة كأنه ينظر الينا حيث يقول:

إذا ما أراد العزّ لـم يشن همّه

حصان عليها نظم در يزينها

نهته فلما لم تر النهي عاقه

بكت فبكى مما دهاها قطينها.

غضبت مرة عاتكة على عبد الملك، وكان بينهما باب فحجبته وأغلقت ذلك الباب، فشقَّ غضبها على عبد الملك بن مروان، وشكا الى رجل من خاصته يقال له عمر بن بلال الاسدي. فوعده هذا الاخير بأن يزيل الجفاء شرط ان يعطيه الملك ما يريد فوافق الملك. عندها أتى عمر بابها، وراح يتباكى فخرجت اليه جواريها وسألنه عن سبب بكائه، فقال: إبناي لم يكن لي غيرهما، فقتل أحدهما صاحبه. فقال امير المؤمنين: أنا قاتل الآخر به. فقلت: أنا الولي وقد عفوت. قال: لا أعوّد الناس هذه العادة. فرجوت أن ينجي الله إبني على يدها.

دخلت الجواري على عاتكة واخبرنها بالامر، فقالت: وكيف أصنع من غضبي عليه وما أظهرت له؟ قلن: اذا والله يقتل.

عندها إرتدت عاتكة أجمل ثيابها وخرجت الى امير المؤمنين طالبة منه الصفح لإبن عمر. ولما رآها عبد الملك إنفعل، وأقسم ان لا يغضبها بعد ذلك، فتصالحا، ومنح عبد الملك عمر مكافأة كبيرة.

أحبت عاتكة الشعر والغناء، وكانت تشجع الشعراء المبدعين والمغنين المجيدين، وتجزل لهم العطاء. يروى أنها في أثناء حجها، دخلت عليها جواريها مرة وقلن لها: هذا الغريض. فقالت لهن: علي به. فجيء به اليها، ولما دخل وسلّم طلبت منه أن يغني بما غنّى عائشة بنت طلحة به فغناها:

يا دهر قد اكثرت فجعتنا

بسراتنا ووقرت في العظم

وسلبتنا ما لست مخلّفه

يا دهر ما أنصفت في الحكم

لو كان لي قرن أناضله

ما طاش عند حفيظة سهمي

لو كان يعطي النصف قلت له

احرزت سهمك فاله عن سهمي.

فقالت: نعطيك النصف، ولا نضيّع سهمك عندنا ونجزل لك قسمك. وأمرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية وغير ذلك من الالطاف.

لما كبر إبنا عاتكة، دخل عليها مرة عبد الملك بن مروان وقال لها: «إن إبنيكِ قد بلغا. فلو شهدتِ لهما بميراثك من أبيك، كانت لهما فضيلة على سائر إخوتهما. فقالت له: إجمع لي شهوداً من مواليّ ومواليك. فجمعهم، وأدخل معهم روح بن زنباع الجذامي. فطلب منه عبد الملك أن يقنع عاتكة بالامر. فدخل اليها وأبلغها رغبة عبد الملك. عندها، أجابته: «يا روح، أتراني اخشى على إبني وهما إبنا أمير المؤمنين. أشهدتك إني تصدّقت بمالي على فقراء آل بني سفيان». فخرج روح يجر رجليه. ولما رآه عبد الملك قال له: «أما أنا فأشهد انك قد أقبلت بغير الوجه الذي أدبرت فيه. فقال: يا أمير المؤمنين، إني تركت معاوية بن أبي سفيان في الديوان جالسا: وهو يعني أن عاتكة كجدّها معاوية في الدهاء. واخبره جواب عاتكة. فغضب عليها عبد الملك وتوعدها. فقال له روح: «مهلا» يا أمير المؤمنين، فوالله لهذا الفعل في إبنيها خير من مالها.» فكفَّ عنها.

ينسب اليها أرض عاتكة خارج باب الجابية في دمشق، وكان لها في هذه الارض قصر مات فيه عبد الملك بن مروان. وقد عاشت الى أن أدركت مقتل إبن إبنها الوليد بن يزيد.

المراجع

١ ـ العقد الفريد. تأليف شهاب الدين أحمد المعروف بإبن عبد ربه الاندلسي. اعداد عصام شعيتو. الاجزاء الرابع والخامس والسادس. منشورات دار مكتبة الهلال.

٢ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الثالث. منشورات مؤسسة الرسالة .

٣ ـ المرأة العربية في جاهليتها وفي إسلامها. تأليف عبد الله عفيفي. الجزء الثاني. منشورات دار الرائد العربي.

عبيدة الطنبورية

عبيدة الطنبورية رائدة من الرائدات المحسنات المتقدمات في صناعة الغناء والمعرفة بالأدب. شهد لها علماء الفن في عصرها بالإجادة والإتقان في صناعتها. كانت من أحسن الناس وجها وأطيبهم صوتاً. قال عنها إسحاق بن إبراهيم: «الطنبور إذا تجاوز عبيدة هذيان».

ولدت عام ٢٢٥ هجرية في بغداد. والدها صباح مولى أبي السمراء الغساني، نديم عبد الله بن طاهر. وكان الزبيدي الطنبوري يختلف إلى أبي السمراء، فتعرف الى عبيدة ولمس موهبتها في صناعة الشعر وفي الغناء، وأعجب بصوتها وعرف طبعها فعلّمها، وواظب عليها.

عندما توفي والدها، تراجعت أحوالها المادية وعانت الجوع والعوز. فخرجت تغني على الطنبور، وكانت قد حذقت به. وسرعان ما عرفت، وإشتهرت بخفة الروح. ولم يزل امرها يزيد حتى تقدمت وكبر حظها وأصبحت من المحسنات المتقدمات في الصنعة والأدب. شهد لها بذلك إسحاق الموصلّي. وكان أبو حشيشة يعظمها ويعترف لها بالرياسة والأستاذية. ذكرها جحظة في كتاب الطنبوريين والطنبوريات، فقال: «كانت من المحسنات، ولم يعرف في الدنيا إمرأة أعظم منها في الطنبور، وكانت لها صنعة عجيبة في الشعر. ومن أبرز أقوالها:

«كن لي شفيعاً إليكا

ان خف ذاك عليكا

واعفني في سؤالي

سواك ما في يديكا

يا مـن اعـز وأهـوى

مالي أهون عليكا»

تزوجت علي بن الفرج الرخجي، وكان حسن الوجه كثير المال، وأنجبت إبنة، ما لبثت أن توفيت. منعها علي من الغناء وحجبها، فكانت تحتال عليه أحياناً وتحتج بالدخول الى الحمام، لتختلي بنفسها وتنصرف الى الغناء ونظم الشعر. وعندما علم زوجها بأمرها طلّقها. الا ان هذه الحادثة لم تؤثر على عبيدة، فأصرَّت أكثر فأكثر على صقل موهبتها وعلى الاستمرار في الغناء وفي الشعر.

عبيدة الطنبورية، سخرت حياتها للغناء وللشعر فاشتهرت وذاع صيتها حتى شهد بموهبتها إسحاق بن ابراهيم الموصلي. حدّث عن ذلك علي بن الهيثم اليزيدي فقال:

«كان أبو محمد ـ يعني أبي رحمه الله إسحاق بن ابراهيم الموصلي ـ يألفني ويدعوني، فجاء يوماً إلى أبي الحسن إسحاق بن ابراهيم فلم يصادفه، فرجع ومرّ بي، وأنا مشرف من جناح لي، فوقف وسلّم علي وأخبرني بقصته، وقال: هل تنشط اليوم للمسير إلي؟ فقلت له: ما على الأرض شيء أحبّ الي من ذلك، ولكني أخبرك بقصتي، ولا أكتمك. فقال: هاتها، فقلت: عندي اليوم محمد بن عمرو بن مسعدة، وهارون بن أحمد بن هشام، وقد دعونا عبيدة الطنبورية، وهي حاضرة، والساعة يجيء الرجلان، فأمضِ في حفظ الله، فإني أجلس معهم حتى تنتظم أمورهم، وأروح اليك، فقال لي: هلا عرضت على المقام عندك؟

فقلت له: لو علمت ان ذلك مما تنشط له والله لرغبت اليك فيه، فإن تفضلت بذلك كان أعظم لمنتك. فقال: افعلُ، فإني قد كنت اشتهي ان اسمع عبيدة، ولكن لي عليك شريطة.

قلت: هاتها.

قال: انها إن عرفتني، وسألتموني ان أغني بحضرتها، لم يخفَ عليها أمري

وانقطعت فلم تصنع شيئاً، فدعوها على جبلتها. اخبرت صاحبيّ ما جرى وكتماها امره. وبعد تناول الطعام غنت لحنا لها تقول فيه:

قريب غير مقترب

ومؤتلف المجتنب

له ودي ولي منه

دواعي الهم والكرب

طرب اسحاق طرباً شديداً، وكلما زادت في الغناء، كلما ازداد طربا.

عاصرت المعتصم الذي سار على خطى الرشيد والأمين والمأمون في الإهتمام بالأدب والموسيقى. فكان البلاط موئل الشعراء والنبهاء وأرباب الموسيقى والغناء وسواهم... وسرعان ما تحوّل البلاط الى مركز تتفاعل فيه الثقافات المختلفة وعلى الرغم من أن المعتصم إتجه الى تنظيم جيشه والى حل المشاكل العسكرية التي حفل بها عهد خلافته، الا انه جعل من السامراء مقر خلافته حاضرة عظيمة تلتقي فيها المدارس الفكرية والفنية المختلفة.

وسط هذه الأجواء التي سيطر عليها الفكر وتفاعل الحضارات، عاشت عبيدة، وانصرفت الى المطالعة والدرس والى تعلم أنواع الغناء والمدارس الادبية الى ان اصبحت موسوعة فنية وأدبية لا يكاد يخفيها أي لحن سواء أكان عربيا أم أعجميا.

يروى أن الطنبوريين إجتمعوا عند أبي العباس بن الرشيد يوما، وبينهم «المسدود» و«عبيدة». فطلبوا من المسدود أن يغني، الا أن هذا الاخير رفض قائلا: لا والله، لا تقدمت عبيدة، وهي الاستاذة، فما غنى حتى غنت.

وكان عمرو بن بانة، إذا عقد مجلسا للشعر وللغناء، دعا عبيدة للغناء. وكان يطرب لها ويلقبها بالأستاذة وكانت جواريه تشاركها الغناء أحيانا. وكان عمرو قد تعرّف اليها في منزل احمد بن الطيب السرخسي. وقد روى هذا الاخير تفاصيل

التعارف فقال: «كان عمرو بن بانة إذا حصل عنده إخوان له يدعوها لهم تغنيهم مع جواريه، وإنما عرفها من داري، لأنه بعث يدعوني، فدخل غلامه، فرآها عندي، فوصفها له، فكتب اليّ يسألني أن أجيئه بها معي. ففعلت، وكان عنده محمد بن عمرو بن مسعدة، والحارث بن جمعة، والحسن بن سليمان البرقي، وهارون بن احمد بن هشام. فعدلوا كلهم الى استماع غنائها والاقتراح له والاقبال عليه ومالت اليها جواريه. وما خرجت الا وعقدت بين الجماعة مودة وكانت جواري عمرو بن بانة يشتقن اليها، فيسألنه أن يدعوها باستمرار..».

كانت عبيدة مجيدة في صنع الألحان ليس لها فحسب، إنما استعان بها المغنون الكبار من أمثال إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وعلوية... وكان إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يحب أن يسمعها، ويمنع نفسه لتيهه وبرمكته وخشيته أن يبلغ المعتصم عنه شيء يعيبه.

ماتت عبيدة بسبب نزف اصابها، فأفرط حتى أتلفها حوالى العام ٨٤٠ م. وبقيت حتى بعد وفاتها محط اهتمام الشعراء ومصدر وحيهم. ومن أبرز ما قيل فيها قصيدة لإسحاق إبراهيم الموصلي يقول فيها:

أمست عبيدة من الإحسان واحدة

فالله جار لها من كلّ محذور

من أحسن الناس وجها حين تبصرها

وأحذق الناس إن غنت بطنبور

المراجع

١ ـ كتاب الاغاني. تاليف أبي الفرج الاصبهاني. المجلد الثاني والعشرون. دار إحياء التراث العربي.

٢ ـ إعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تاليف عمر رضا كحاله. مؤسسة الرسالة الجزء الثالث. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٣ ـ الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. المجلد الرابع الطبعة السادسة ١٩٨٤.

٤ ـ الموجز في الأدب العربي وتاريخه. تأليف حنا الفاخوري. الجزء الثاني. دار الجيل. بيروت.

عريب المأمونية

شهد العصر العباسي، إنتقال الدولة العربية من عهد الفتح وتدعيم الملك وإخماد الثورات الداخلية والخارجية، الى عهد الراحة وبسط السيادة والرفاهية في العيش، وتطورا بارزا في الفكر نتيجة التفاعل بين الفاتح العربي الظافر وبين الامم المغلوبة من روميّة وفارسية وغيرها من المدنيات الغنية بالعلوم والفنون وتجارب العالم القديم.

في هذا العصر، بلغ نضج المرأة العربية مداه، وبرز في شكل واضح في الآثار التي خلفتها، سواء في الحضارة أو في الثقافة...

وفي هذا العصر أيضا، تبدلت النظرة الى «الإماء» عن العصر الاموي. فبينما كان أبن الامة (الجارية) يعير ولا يُعطى حق الخلافة، أصبح في العهد العباسي لا يختلف عن غيره من حيث الحق في الحياة الكريمة.

هذه النظرة الى «الجارية» المتمثلة بالتقدير، دفعت بعضهن الى النبوغ في الموسيقى والادب والشعر والتاريخ. فجارين شعراء العصر، وطرقن أبواب الشعر حتى الغزل، كذلك جارين أساتذة الفن الغنائي كإبراهيم الموصلي وأبيه إسحاق وغيرهما، وتفوقن في هذا المجال، حتى أن إحداهن وتدعى «بذل»، كانت تغني ثلاثين الف صوت، وكان لها كتاب يجمع إثني عشر الف صوت.

من شهيرات الإماء عريب المأمونية، التي وصفها شيخ الفن إسحاق الموصلي قائلا: «ما رأيت إمراة أضرب من عريب ولا أحسن صنعة، ولا أجمل وجها، ولا أخف روحا، ولا أحسن خطابا، ولا أسرع جوابا، ولا ألعب بالشطرنج والنرد، ولا أجمع لخصلة حسنة... لم أر مثلها في إمرأة غيرها»...

أجمع المؤرخون والرواة على أنها فتنة العصر العباسي وعقدة سحره، وملتقى بدائعه، ومجتمع نوادره. ولدت عام ١٨١هـ. ونشأت في دار جعفر بن يحيى البرمكي. وقيل إنها إبنته من إحدى جواريه، ثم جحد البرامكة نسبتها على أثر النكبة التي حلّت بجعفر، وبيعت مع مجموعة من جواريه.

إحتازها ثمانية من هذه الدولة، أولهم «الأمين» وآخرهم «المعتز». وقد أجمع هؤلاء على تقدير مواهبها وأعتبرها كل منهم زينة قصره، وآية عصره فتجلى تفوقها وبدا واضحا في حلاوة شعرها، وعمق حديثها، ودقة غنائها، وبلاغة خطابها...

في البدء، كانت «عرّيب» جارية عبد الله بن إسماعيل صاحب مراكب الرشيد. فرباها، وأدبها، وعلمها الغناء، والخط والنحو والشعر، فبرعت، وأصبحت مغنية محسنة وشاعرة صالحة الشعر ومليحة الخط، ومتقنة العزف والرواية والأدب، حتى اجمع معاصروها، انهم لم يروا في النساء، (بعد القيان الحجازيات القديمات مثل جميلة وعزة الميلاء وسلامة الزرقاء)، نظيراً لها.

على أثر وفاة الرشيد، صارت عرّيب الى محمد الامين بن هارون الرشيد. ولما قتل محمد الأمين، هربت الى مولاها المراكبي، وبقيت عنده الى أن اشتراها المأمون بمائة الف درهم.

يروى عن المأمون، ان المغني إسحاق، لما قدم اليه ووصفها له قبل أن تصير اليه، أمره أن يشتريها بمائة الف درهم، وأعطى إسحاق مائة ألف أخرى لأنه كان الواسطة في شرائها.

قال إبراهيم بن رباح، كاتب ديوان المأمون: «فلما أردت أن أثبت هذا القدر من المال، كتبت أن المائة ألف خرجت ثمنا لجوهرة، والمائة الف الاخرى خرجت لصائغها ودلالها. ولما جاء الوزير الفضل بن مروان الى المأمون، وقد رأى ذلك وأنكره، وسألني عنه فقلت نعم، هو ما رأيت. وسأل المأمون فقال: وهبت لدلال وصائغ مائة الف درهم. فاستهجن هذا التصرف ودعاني، فدنوت منه، وأخبرته أن المال الذي خرج هو ثمن عرّيب ووساطة إسحاق».

كان لعرّيب عند المأمون المكانة المهمة وقد شغف هذا الاخير بها شغفا كبيرا لدرجة انها نسبت اليه وقيل لها «عرّيب المأمونية».

يحكى أن المأمون عتب على عرّيب فهجرها أياما. ثم مرضت، فعادها وقال لها: «كيف وجدت طعم الهجر؟» فقالت: «يا أمير المؤمنين لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل ومن ذمٍّ بدء الغضب حمد عاقبة الرضا». فخرج المأمون الى جلسائه فحدثهم بالقصة. ثم قال: «أترى هذا لو كان من كلام النظام، الم يكن كبيرا؟».

وجرى بين عرّيب وبين المأمون مرة نقاش حاد. فغضبت منه وهجرته اياما. فدخل على المأمون أحمد بن أبي داود، ولما رآه بادره الى القول: «يا أحمد إقض بيننا». ولما استأذن، عرّيب وحاول تقريب وجهات النظر بينها وبين المأمون قالت له: «لا حاجة لي في قضائه ودخوله في ما بيننا». وأنشدت قصيدة هذا مطلعها:

«وتخلط الهجر بالوصال ولا

يدخل في الصلح بيننا أحد»

ومن شعر عرّيب قولها:

«لا غرّني بعدك إنسان

فقد بدت لي منك الوان

إن تغيرت فما حيلتي

ما لي على قلبك سلطان»

قال عبد الله بن المعتزّ: «وقعت اليّ رقاع لعريب فيها مكاتبات منثورة ومنظومة، فقرأت رقعة منها الى المأمون، وقد خرج الى «فم الصلح» لزفاف «بوران»:

«أنعم تخطتك صروف الردى

بقرب «بوران» مدى الدهر

درة خدر لم يزل نجمها

بنجم «مأمون» العلى يجري

حتى استقرّ الملك في حجرها

بورك في ذلك من حجر»

وكانت بين إبراهيم بن المدبّر (من أبرز شعراء العراق، والاقرب الى مجلس المتوكل) وبين عرّيب قصة حب. ولهما في ذلك روايات كثيرة. حدّث الفضل بن العباس بن المأمون فقال: «زارتني عرّيب يوما ومعها عدة من جواريها. فوافتنا. فتحدثت معنا ساعة وسألتها أن تقيم عندنا. فأبت وقالت: قد وعدت جماعة من أهل الادب والظرف أن أصير اليهم، وهم في جزيرة المؤيد منهم إبراهيم بن المدبّر وسعيد بن حميد ويحيى بن عيسى. فحلفت عليها. فأقامت ودعت بدواة وقرطاس وكتبت اليهم سطرا واحدا. فلما وصل أخذه إبراهيم بن المدبّر فكتب تحت أردت «ليت»، وتحت «لولا» ماذا، وتحت «لعلّي» أرجو. ولما قرأت عرّيب الجواب طربت وقالت: «أنا أترك هؤلاء وأقعد عندكم...

وحدث مرة أن احتجبت عرّيب مدة عن إبراهيم بن المدبر. فأثارت في نفسه الحنين. فأنشد قصيدة زاخرة بالعتب:

«الى الله أشكو وحشتي وتفجعي

وبعد المدى بيني وبين عرّيب

مضى دونها شهران لم اخل منهما

بعيش ولا من قربها بنصيب

فكنت غريبا بين اهلي وجيرتي

ولست إذا ابصرتها بغريب

وإن حبيبا لم يرَ الناس مثله

حقيق بأن يفدى بكل حبيب»

وحدث أن اجتمع إبراهيم بن المدبّر وعبد الله بن حمدان وإبن منارة والقاسم في بستان في المطيْرة في يوم غائم. قال عبد الله بن حمدان: «لم نشعر الا بعرّيب أقبلت من بعيد. فوثب إبراهيم بن المدبّر من بيننا وخرج حافيا حتى لاقاها. فأقبلت عليه مبتسمة وقالت: «إنما حننت الى من هنا لا إليك، فاعتذر لها وقال:

«بأبي من حقق الظن به

فأتانا زائرا مبتديا»

فكان كالغيث تراخى مدة

وأتى بعد قنوط مرْويا

طاب يومان لنا في قربه

بعد شهرين لهجر مضيا

فاقرّ الله عيني وشفى

سقما كان لجسمي مبليا

يروي إبن حمدون نادرة بطلتها عرّيب. فقال: «كنا يوما مجتمعين في منزل أبي عيسى بن المتوكل، ومعنا جعفر بن المأمون وسليمان بن وهب وإبراهيم بن المدبر. وحضرت عرّيب وشارية وجواريهما. فغنت بدعة جارية عرّيب لحنا من ابتكار عريب:

أعاذلني اكثرت جهلا من العذل

على غير شيء من ملامي وفي عذلي

وغنت عرفان غناء لشارية:

إذا رام قلبي هجرها حال دونه

شفيعان من قلبي لها جدلان

وكان أهل الظرف في ذلك الوقت فريقين. عُرَّيبية وشرورية. فمال كل حزب الى من يتعصب له منهما من الاستحسان والطرب، وعرّيب وشارية ساكتتان لا تنطقان، وكل واحدة من جواريهما تغني، الى أن غنت عرفان، فأجادت. فلما إنتهت قالت عرّيب لشارية: يا أختي لمن هذا اللحن؟ أجابت شارية: كنت صنعته في حياة سيدي، (تعني إبراهيم بن المهدي)، وغنيته إياه فإستحسنه وعرضه على إسحاق وغيره فاستحسنوه.

فسكتت عرّيب ثم قالت لأبي عيسى: أحب بأبي فديتك أن تبعث الى عثعث (مملوك أسود مغني)، فتجيئني به. ولما حضر، قالت له عرّيب: يا أبا دليجة أو تذكر صوت زبير بن دحمان عندي وأنت حاضر؟

قال: نعم والله إني لذاكره حتى كأننا أمس إفترقنا عنه. فقالت: غنه. فإندفع، فغنى الصوت الذي إدعته شارية. فتضاحكت عرّيب ثم قالت لجواريها: خذوا في الحق ودعونا من الباطل، وغنوا الغناء القديم. فغنت بدعة وسائر جواري عرّيب وخجلت شارية وأطرقت، وظهر الانكسار، فيها، ولم تتباه يومئذ بنفسها ولا أحد من جواريها ولا متعصبيها...»

كانت عرّيب في معظم الاحوال والمناسبات، تقول الشعر، ثم تصوغه لحنا، ثم توقعه غناء يفيض عذوبة وإجادة. ومن شعرها ولحنها وغنائها قولها:

«اما الحبيب فقد مضى

بالرغم مني لا الرضا

اخطأت في تركي لمن

لم ألف عنه معرضا»

ومنه:

«إذا كنت تحذر ما تحذر

وتزعم أنك لا تجسر

فمالي أقيم على صبوتي

ويوم لقائك لايقدر»

من بديع إجازتها للشعر، ما حدّث علي إبن المنجم فقال: «دخلت يوما على عرّيب مسلما عليها. فلما جلست هطلت السماء. فقالت: أقم عندي اليوم حتى أغنيك أنا وجواري. جلسنا نتحدث.

فسألتني عن خبرنا بالامس في مجلس الخليفة «الواثق» ومن كان يغنينا وأي شيء إستحسناه من الغناء. فأخبرتها أن صوت الخليفة كان لحنا صنعه «بنان» المغني من الماخوري، وكان الواثق من أعلم الناس باللحن والايقاع. فقالت وما هو؟ قلت:

«تجافى ثم تنطبق

جفون حشوها الارق

وذي كلف بكى جزعا

وسفر القوم منطلق

به قلق يلملمه

وكان وما به قلق

جوانحه على خطر

بنار الشوق تحترق»

اشتهرت عرّيب بوفائها لفنها ونسيان ذاتها في سبيله. وقال صالح بن علي بن

الرشد: تبارى خالي أبو علي والمأمون في صوت. فقال المأمون: أين عرّيب؟ فجاءت وهي محمومة، فسألها عن الصوت، فقالت فيه بعلمها، فقال لها غنيه. فأمسكت بالعود وراحت تغني والعرق يتصبب من جبينها، وما سكتت حتى انتهت من الصوت، وسقطت مغشيا عليها.

المراجع

١ ـ المرأة وأثرها في الحياة العربية. تأليف عبد الحميد فايد. منشورات دار الكتاب اللبناني. الطبعة الثانية ١٩٧٥.

٢ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تأليف عمر رضا كحالة. منشورات مؤسسة الرسالة. الجزء الثالث الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٣ ـ كتاب الاغاني. تأليف ابي الفرج الاصبهاني. المجلد الحادي والعشرون. دار إحياء التراث العربي.

٤ ـ المرأة العربية في جاهليتها وفي إسلامها تأليف عبد الله عفيفي. منشورات دار الرائد العربي الجزء الثالث. الطبعة الثانية ١٩٨٢.

عزة بنت جميل

عزّة بنت جميل ابن حفصٍ، ملهمة «كثيِّر» الشاعر، من اجمل النساء واعقلهن واكثرهن ادبا ورقة في الحديث. عاشت في المدن وانتقلت من ثم الى مصر. وكانت قد سبقتها شهرتها الى هناك، فاعجب بها عبد الملك بن مروان، وامر بادخالها على حرمه ليتعلمن من ادبها. روت قسيمة بنت عياض بن سعيد الاسلمية قالت: «سارت علينا عزة في جماعة من قومها بين يدي يربوع وجهينة، فسمعنا بها. فاجتمعت جماعة من نساء الحاضر انا فيهن، فجئناها، فرأينا امرأة حلوة حميراء نظيفة، فتضاءلنا لها ومعها نسوة كلهن لها عليهن فضل من الجمال والخلق، الى ان تحدثت ساعة، فاذا هي ابدع الناس واحلاهم حديثا، فما فارقناها الا ولها علينا الفضل في اعيننا، وما نرى في الدنيا امرأة تروقها جمالا وحسنا وحلاوة». أعجب بها الشاعر «كثيّر»، ووصل هذا الاعجاب الى حد الهيام، وقال فيها اجمل الشعر وارقه واكثره ديمومة.

يعتبر «كثيّر» من كبار شعراء الاسلام. جعله ابن سلام في الطبقة الاولى منهم، وقرن به جريرا والفرزدق والأخطل والراعي. اعجب به آل مروان. وعرف بغروره واعجابه بنفسه.

شبَّ «كثيِّر» في دار عمّ له. وقد اشترى له هذا الاخير قطيعا من الابل. وبينما كان يسير يوما في وضح النهار يرعى ابله، اذا بنسوة من بني ضمرة يمررن به، ويبتعدن قليلا. ولم يلبثن بعد لحظات الا ان ارسلن صبية اليه، فبادرته الى القول «بعنا كبشا من هذه الغنم وانسئنا بثمنه الى ان ترجع.

«فأعطاها كبشا» وذهبت، الا ان صورتها ما لبثت ان انطبعت في قلبه وفي عقله

ووقع في حبها منذ ان صادفتها عيناه. اكمل طريقه، وعاد في آخر النهار. فلاقته امرأة منهن واعطته دراهمه، بادرها فورا الى السؤال: «اين الصبية التي اخذت مني الكبش؟ اجابت: وما تصنع بها؟ هذه دراهمك. قال: لا آخذ دراهمي الا ممن دفعت الكبش اليها». وازاء اصراره نودي على الصبية، وكان اول لقاء بين كثيّر وعزة.

وفي رواية اخرى ان كثيّر خرج من منزله يوما يسوق غنما الى جاره. ولما كان بالخبت وقف على نسوة من بني ضمرة، فسألهن عن الماء، فقلن لعزة: «ارشديه الى الماء». فارشدته واعجبته. وبينا هو يسقي غنمه، جاءته عزة بدراهم. وقالت: «يقول لك النسوة بعنا بهذه الدراهم كبشا من ضأنك». فأمر الغلام، فدفع اليها كبشا، وقال: «ردي الدراهم وقولي لهن: اذا رحت بكن اقتضيت حقي». ولما راح مرّ بهن، فقلن له: «هذا حقك فخذه». فقال: «عزّة غريمي، ولست اقتضي حقي الا منها». فمزحن معه وقلن: «ويحك! عزّة جارية صغيرة وليس فيها وفاء لحقك فاحله على احدانا، فانها املأ به منها واسرع له اداء. فاجاب: «ما انا بمحيل حقي عنها». ومضى لوجهه، وما لبث ان عاد وانشدهن:

«قضى كل ذي دين فوفى غريمه

وعزة ممطول معنىً غريمها»

فقلن له: «ابيت الا عزة!» وابرزنها اليه. فكرهته في البدء، ومن ثم احبته اكثر من حبه لها. وفي احد الايام، دخلت عليه متنكرة، وارادت امتحان مدى حبه لها فقالت له: «انشدني اشد بيت قلته في حب عزة. فأنشدها «وجدت بها...» فقالت: لم تصنع شيئا قد يجد هذا ناقة يركبها. فاطرق ثم قال:

«وجدت بها ما لم يجد ذو حرارة

يمارس جمات الركي النوازح

فقالت له: لم نصنع شيئا، يجد هذا من يسقيه. فاطرق ثم قال:

«وجدت بها ما لم نجد ام واحدة

بواحدها تطوى عليه الصفائح»

شاعت اخبار حب كثيّر لعزة، وانتشرت قصائده فيها، وراح يتناقلها الناس ويتمثلون به لما يرمز الى الوفاء، لدرجة انهم صاروا ينسبون كثيّر الى عزة وسرعان ما اصبح يلقب بـ«كثيّر عزّة». وفي احد الايام، دخل غلام له الى منزل عزة من دون ان يعرفها، وباعها بعض سلعه. وقبل ان يهم بالخروج قال لها: انت والله كما قال مولاي:

«قضى كل ذي دين فوفى غريمه

وعزة ممطول معنى غريمها»

فانصرفت عنه خجلة. فقالت له امرأة: أتعرف عزة؟

قال: لا والله! قالت: فهذه والله عزة، فقال: لا حرَمَ والله لا آخذ منها شيئا ابدا ولا اقتضيها. ورجع الى كثير، فأخبره بذلك، فأعتقه ووهب له المال الذي كان في يده. وصلت اخبار كثير وعزة الى عبد الملك بن مروان، وكان كثيّر شاعره المفضل. فسأله مرة الخليفة عن اعجب خبر له مع عزّة، فذكر له ملاقاتها له مع زوجها عندما امرها هذا الاخير بشتمه فقال:

«حججت سنة من السنين وحجّ زوج عزة بها. ولم يعلم احد منا بصاحبه. لما كنا ببعض الطريق امرها زوجها بابتياع سمن تصلح به طعاما لاهل رفقته. فجعلت تدور الخيام خيمة خيمة حتى دخلت الي وهي لا تعلم انها خيمتي، وكنت ابري اسهما لي. فلما رأيتها جعلت ابري وأنا انظر اليها، ولا اعلم حتى بريت عظامي مرات ولا اشعر به والدم يجري. فلما تبينت ذلك دخلت اليّ فأمسكت يدي وجعلت تمسح الدم عنها بثوبها، وكان عندي بعضا من السمن، فحلفت لتأخذنه، فأخذته وجاءت الى زوجها بالسمن. فلما رأى الدم سألها عن خبره، فكاتمته، حتى حلف لتصدقنه فصدقته، فضربها وحلف لتشتمني في وجهي فوقفت علي وهو معها فقالت لي: «يا إبن الزانية»، وهي تبكي، ثم انصرفا.

من اخبار كثير وعزة ايضا انهما لم يكونا يلتقيان الا صدفة. واذا التقيا، كانا يتسامران ويتبادلان القصائد والحديث. ويتشاكيان ظلم القدر الذي فرّق بينهما.

روى إبراهيم بن أبي عمرو الجهنّي عن أبيه قال:

«سارت علينا عزّة في جماعة من قومها، فنزلت حيالنا. جاءني كثيّر ذات يوم وقال لي: «اريد ان اكون عندك اليوم فأذهب الى عزّة؛ فصرت به الى منزلي. فأقام عندي حتى العشاء، ثم ارسلني اليها واعطاني خاتمه وقال: اذا سلمت فستخرج اليك جارية، فادفع اليها خاتمي واعلمها مكاني. فجئت بيتها فسلمت فاعطيتها الخاتم، فقالت: اين الموعد؟ قلت: صخرات ابي عبيد الليلة، فواعدتها هناك فرجعت اليه فاعلمته فلما امسى قال لي: انهض بنا، فنهضنا، فجلسنا هناك نتحدث حتى جاءت من الليل، فجلست فتحدثا فأطالا، فذهبت لأقوم فقال لي: الى أين تذهب؟ فقلت: اخليكما ساعة لعلكما تتحدثان ببعض ما تكتمان. فقال لي: أجلس فوالله ما كان بيننا شيء قط. فجلست وهما يتحدثان. ثم قامت وانصرفت وقمت انا وهو، فظل عندي حتى امسى ثم انطلق». حب عزة ملك عليه فؤاده، وكان كثيّر دائم التيه،يبحث عن عزة في كل مكان عله يلمح طيفها من بعيد. وفي إحدى المرات، خرج بجمل له يبيعه، فمر بسكينة بنت الحسين ومعها عزة وهو لا يعرفها. فقالت سكينة: هذا كثيّر فسوموه بالجمل، فساموه، فاستام مائتي درهم، فقالت: ضع عنا فأبى، فدعت له بتمر وزبد فأكل: ثم قالت له: ضع عنا كذا وكذا فأبى. فقالوا: قد اكلت يا كثير بأكثر مما نسألك: فقال: ما أنا بواضع شيئا. فقالت سكينة: اكشفوا، فكشفوا عنها وعن عزّة. فلما رآهما استحيا وانصرف وهو يقول هو لكم، هو لكم.

وكانت عزة تحفظ اجمل الاشعار وترويها في مجالسها. وكان اكثر ما يثيرها اقوال كثيّر في غيرها من النساء. وكانت لا تتورع عن هجائه اذا سمعت قصيدة من هذا النوع.

دخلت عزّة على عبد الملك بن مروان وقد عجزت؛ فقال لها: «انتِ عزّة كثيّر؟» فقالت: «انا عزة بنت جميل». قال «أنت التي يقول كثيّر:

لعزّة نار ما تبوخ كأنها

اذا ما رمقناها من البعد كوكب

فما الذي اعجبه منك؟ قالت: «كلا يا امير المؤمنين: فوالله لقد كنت في عهده احسن من النار في الليلة القرّة». فقال لها هل ترويين قول كثير فيك:

«وقد زعمت اني تغيرت بعدها

ومن ذا الذي يا عزَّة لا يتغير

تغير جسمي والخليقة كالتي

عهدت ولم يخبر بسرِّك مخبر

قالت: لا! ولكني أروي قوله:

«كأني انادي صخرة حين اعرضت

من الصمّ لو تمشي بها القصُم زلّت

صفوحا فما تلقاك الا بخيلة

فمن ملَّ منها ذلك الوصل ملّت».

توفيت عزة عام ٨٥ هـ. (٧٠٤م) وقال إبن كثير: ماتت في مصر في أيام عبد العزيز بن مروان. وقد زار كثّير قبرها وتغير شعره بعدها، فقال له قائل: «ما بال شعرك قد قصرت فيه؟» فقال: «ماتت عزة فلا أطرب وذهب الشباب فلا اعجب، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب وإنما الشعر عن هذه الخلال.

أما كثير، فمات وعكرمة مولى إبن عباس في يوم واحد. فاجتمعت قريش في جنازة كثّير، ولم يوجد لعكرمة من يحمله. وخرجت النساء وراء نعش كثّير يندبنه ويبكينه ويذكرن عزة ويرددن ابيات كثير منها.ويندبن الحب الذي دفن مع كثّير وعزة.

المراجع

١ ـ كتاب الاغاني تأليف ابي الفرج الاصبهاني علي بن الحسين. المجلد التاسع. منشورات دار احياء التراث العربي.

٢ ـ بلاغات النساء. تأليف ابي الفضل احمد بن ابي طاهر المعروف بإبن طيفور. منشورات دار الحداثة. الطبعة الاولى ١٩٨٧.

٣ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة. الجزء الثالث. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٤ ـ العقد الفريد. تأليف شهاب الدين احمد المعروف بإبن عبد ربه الاندلسي. اعداد عصام شعيتو. الجزء السابع. منشورات دار مكتبة الهلال. الطبعة الاولى ١٩٨٦.

٥ ـ الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. المجلد الرابع منشورات دار العلم للملايين.

عفراء

عفراء بنت مهاجر بن مالك، من بني ضبيّة بن عبد، من عذرة، شاعرة من أهم الشاعرات العربيات، اشتهرت بقصائدها التي تنم عن رقة وإحساس في وصف العاطفة والتعامل معها على أنها أسمى نعم الله للانسان.

عفراء، لم تكن فقط شاعرة العاطفة، إنما جسدت في طريقة حياتها نبل المرأة العربية وشهامتها وقدرتها على تخطي ذاتها في سبيل المحافظة على شرف زوجها وعائلتها، وترسيخ دعائم بيتها وعشيرتها والمقربين منها. كذلك كانت مثالا للاخلاص اللامتناهي والتفاني في سبيل قومها الى ابعد حدود. إرتبط اسم عفراء بإبن عمها عروة بن حزام، ونشأ عروة في دار عمه عقال، بعدما مات والده وهو طفل. وكان وعفراء أترابآ. فنشآ معا وتقاسما اللعب والطعام، وكبرا وكبرت معهما عاطفة لا تنتهي، وإرادة قوية في متابعة مسيرة الحياة معاً.

لاحظ عقال الإلفة الناشئة بين عفراء وعروة، فرعاها، وكان يردد لعروة دائما: «أبشر فإن عفراء أمتك إن شاء الله». وبقيا على هذه الحال، الى ان لحقت عفراء بالنساء ولحق عروة بالرجال. وفي أحد الايام، وكان اضناه الحنين والشوق، لجأ الى عمة له تدعى هند بنت مهاجر، وبثها لوعته، وشكا لها ضيق صبره، طالبا إياها الذهاب الى عمه والتكلم معه في شأن عفراء. فذهبت عمته الى أخيها وقالت له: «يا اخي، قد اتيتك في حاجة أحب ان تحسن فيها الردّ، فان الله يأجرك لصلة رحمك بي ما أسألك». فقال لها: «قولي فلن تسألي حاجة الا رددتك بها». قالت: «تزوج عروة إبن أخيك بإبنتك عفرا». فقال: «ما عنه مذهب ولا هو دون رجل يرغب عنه ولا بنا عنه رغبة، ولكنه ليس بذي مال وليست عليه عجلة عندما علم عروة بجواب عمه، طابت

نفسه وسكن بعض السكون، الا أن أم عفراء كانت سيئة الرأي به، تريد لابنتها المال والجاه والمركز، وترفض رفضا قاطعا فكرة زواج ابنتها وعروة. وصادف ذات يوم ان مرّ بدار عفراء احد التجار الاغنياء، فرأى عفراء وكان اكتمل نضوجها وجمالها، واعجب بها، وتقدم الى والدها طالبا الزواج منها. فوافق عقال على الفور. وصل خبر خطوبة عفراء الى عروة، فجنّ جنونه وركض الى عمه ناشدا اياه التراجع عن موقفه، وخاطبه فور لقائه قائلا:

«يا عمّ، قد عرفت حقي وقرابتي، وإني ولدك وربيت في حجرك. وقد بلغني ان رجلا خطب عفراء، فإن اسعفته بطلبته قتلتني وسفكت دمي، فانشدك الله ورحمي وحقي». رق عقال لحاله وقال له: «يا بني أنت معدم، وحالنا قريبة من حالك، ولست مخرجها الى سواك، وأمها قد أبت أن تزوجها الا بمهر غالٍ». فاضطرب وركض الى امّها وتوسل اليها العودة عن قرارها. فأبت هذه الاخيرة ان تجيبه الا بما تحتكمه من المهر وبعد ان يسوق شطره اليها. فوعدها بذلك وعلم ان السبيل الوحيد للوصول الى عفراء هو المال فقط. فصمم الرأي على أن يقصد احد اقربائه الميسورين واعلم عمه بذلك وتوسل اليه أن لا يأتي امرا قبل عودته. فوعده هذا الاخير خيراً.

وفي ليلة رحيله، قصد عفراء وجلس عندها هو وجواري الحي، وراحوا يتحدثون ويتبادلون الشعر حتى اصبحوا. فودعها وودع الحي ومشى في طريقه يرافقه فتيان من بني هليل بن عامر. وعلى طول الطريق، كان عروة شارد الفكر والذهن، لا يرى امامه الا وجه عفراء. وبقي على هذه الحال الى ان وصل عند ابن عمه، فأخبره بحاله. استقبله ولبى طلبه وكساه فانصرف بها الى اهله.

في أثناء سفره، الح التاجر وهو من انساب بني أميّة على والد عفراء بالاسراع في تزويجه إياها. فبادره هذا الاخير الى القول: «قد سميتها الى أخ لي يعد لها عندي، وما اليها لغيره سبيل: «فقال له التاجر: «إني أرغبك في المهر». فأجاب: «لا حاجة لي بذلك». فما كان من التاجر الا ان لجأ الى والدة عفراء، فلاحظ عندها قبولا لبذله

ورغبت في ماله. فوعدته خيرا. وجاءت الى عقال، فأذنته وقالت: «اي خير في عروة حتى تحبس ابنتي عليه وقد جاءها الغني يطرق عليها بابها، والله ما تدري أعروة حي أم ميت، وهل ينقلب اليك بخير أم لا، فتكون حرمت إبنتك خيراً حاضراً ورزقاً سنياً». ولم تزل به حتى أقنعته بوجهة نظرها وقال لها: «إن لي خاطبا أجبته» فوجهت اليه ان: «عدّ اليه خاطبا».

في اليوم التالي، اتاه التاجر طالبا الزواج من عفراء فوافق على الفور وزوجه اياها. فور تبلغها الخبر، صعقت عفراء وبكت، ونظمت قصيدة طويلة رثت فيها حياتها وحالها واسفت لنقض والدها بعهده لعروة جاء في مطلعها:

«يا عروة إن الحي قد نقضوا

عهد الاله وحاولوا الغدرا»

بعد ايام ثلاثة، رحل بها زوجها الى الشام. وفي محاولة منه لإخفاء حقيقة الامر عن عروة، عمد والدها الى قبر قديم، فجدده وسأل الحي كتمان امرها.

ولما عاد عروة الى الحي، سارع الى عفراء. فلم يجدها سأل والدها. فنعاها وذهب به الى ذلك القبر. فمكث عروة قربه يبكي وينتحب اياما الى ان جاءته جارية من الحي وأخبرته حقيقة الامر. فما كان منه إلا أن ركب بعض ابله وأخذ معه زاداً ونفقة ورحل الى الشام. ولما وصل، سأل عن التاجر، فقصده، وانتسب الى حي آخر. فأكرمه التاجر واحسن ضيافته. فمكث أياما حتى أنس به أهل البيت. إلا أنه لم يستطع رؤية عفراء. وعندما عيل صبره، دفع بخاتم له الى جارية وطلب منها طرحه في صحن عفراء قائلاً لها: «ويحك هي والله بنت عمي، وما أحد منا إلا وهو أعز على صاحبه من الناس. فأطرحي هذا الخاتم في صحنها، فإن أنكرت عليك، فقولي لها اصطبح ضيفك قبلك ولعله سقط منه».

نفذت الجارية ما أمرها به. ولما شربت عفراء اللبن، رأت الخاتم فعرفته، فشهقت ثم قالت: «اصدقيني عن الخبر» فصدقتها.

عفراء الحريصة على الوفاء لزوجها ولدارها، داست على قلبها وسارعت الى

اعلام زوجها بالامر فور عودته قائلة له: «أتدري من ضيفك هذا؟» قال: «نعم، فلان بن فلان»، أي النسب الذي إنتسب به عروة. قالت: «كلا والله، بل هو عروة بن حزام إبن عمي، وقد كتمك نفسه حياء منك».

وفي رواية اخرى، إن ابن عم له جاء زوج عفراء وبادره الى القول: «أتركتم هذا الكلب الذي قد نزل بكم هكذا في داركم يفضحكم. فقال له: «ومن تعني؟ قال: عروة بن حزام العذري ضيفك هذا». قال: «أو إنه لعروة، بل أنت والله الكلب وهو الكريم القريب».

ما لبث التاجر أن بعث الى عروة، فدعاه وعاتبه على كتمان نفسه اياه وقال له: «بالرحب والسعة، نشدتك الله إن رمت هذا المكان ابدا». وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان. وأوصى خادما له باستراق السمع. فلما خلوا تشاكيا ما وجدا بعد الفراق، فطالت الشكوى وهو يبكي احر بكاء، ثم أتته بشراب وسألته بأن يشربه وقال: «أنت حظي من الدنيا، وقد ذهبت مني وذهبت بعدك، فما أعيش وقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن، وأني مستحٍ منه والله لا أقيم بعد علمه بمكاني، وإني عالم إني راحل الى منيتي». فبكت وبكى وانصرف.

ولما جاء زوجها أخبره الخادم بما سمع، فدخل الى عفراء وبادرها الى القول: «يا عفراء امنعي ابن عمك من الخروج». فقالت: «لا يمتنع هو والله اكرم واشدّ حياء من أن يقيم بعد ما جرى بينكما». فدعاه وقال له: «يا أخي، اتقِ الله في نفسك، فقد عرفت خبرك إن شئت لافارقنها، ولانزلن عنها لك».

فجزاه خيرا وأثنى عليه فتركهم عروة وعاد أدراجه الى دياره.

لم تكن تمضي فترة قصيرة حتى أصابه الإعياء الشديد. وكان كلما أغمي عليه القى على وجهه ضمارا لعفراء زودته به. وفي أحد الايام، وبينما هو هائم على وجهه لا يعرف طريقا ولا راحة التقاه ابن مكحول عرّاف اليمامة، فرآه ما هو عليه من حالٍ يرثى لها. فسأله عن حاله وهل به خبل أو جنون. فقال له عروة: «ألك في علم الأوجاع؟ قال: نعم. فبادره عروة الى القول:

«ما بي خبل ولا بي جنّة

ولكن عمي يا أخي كذوب

أقول لعراف اليمامة داوني

فإنك إن داويتني لطبيب

فواكبدا أمست رفاة كأنما

يلذعها بالموقدات لطبيب

عشية لا عفراء منك بعيدة

فتسلو ولا عفراء منك قريب

عشية لا خلفي مكر ولا الهوى

أمامي ولا يهوى هواي غريب

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا

وما عقبتها في الرياح جنوب

وإني لتغشاني لذكراك هزة

لها بين جلدي والعظام دبيبُ».

يروى أن عروة كان يأتي حياض الماء التي كانت إبل عفراء تردها فيلصق صدره بها، فيقال له: «مهلا فإنك قاتل نفسك فإتق الله». واستمر على هذه الحال حتى أشرف على الموت. وكان يردد:

«أفي كل يوم أنت رام بلادها

بعينين إنساناً هما غرقان

الا فاحملاني بارك الله فيكما

الى حاضر الروحاء ثم دعاني»

ولم يزل عروة هائما على وجهه الى ان فارق الحياة. وذكر الكلبي عن أبي صالح خبر موت عروة قائلا: كنت مع إبن عباس بعرقه، فأتاه فتيان يحملون بينهم فتى لم يبق منه الا خياله. فقالوا له: «يا إبن عم رسول الله ادعُ له. فقال: وما به؟ قال الفتى:

«بنا من جوى الاحزان في الصدر لوعة

تكاد لها نفس الشفيق تذوب»

ثم خفت في أيديهم. فإذا هو قد مات. فقال إبن عباس: هذا قتيل الحب لا عقل ولا وقود. وسألنا عنه فقيل: هذا عروة ابن حزام.

بلغ عفراء خبر وفاة عروة. فجزعت جزعاً شديداً وقالت ترثيه:

«الا أيها الركب المجنون ويحكم

بحق نعيتم عروة بن حزام

فلا تهنىء الفتيان بعدك لذة

ولا رجعوا من عيبة بسام

وقل للحبالى لا ترجين غائبا

ولا فرحات بعده بغلام

وقيل لعفراء وقد بلغ ما عانى عروة: «الم يكن لديك حيلة تخففي ما به؟» فقالت: «والله لأنا أسمو بذلك وأشوق اليه، ولكن لا سبيل الى احتمال العار ودخول النار. فور شيوع خبر وفاة عروة، طلبت عفراء من زوجها السماح لها بندبه. فأقيم له مأتم، وبقيت تندبه أياما ثلاثة وتوفيت في اليوم الرابع. (حوالى العام ٥٠ هـ ٦٧٠م). ودفنت الى جانبه.

بلغ معاوية بن أبي سفيان خبرهما، فقال: «لو علمت بحال هذين الحرين الكريمين لجمعت بينهما».

المراجع

١ ـ بلاغات النساء. تأليف أبي الفضل أحمد بن ابي طاهر المعروف بابن طيفور. منشورات دار الحداثة. الطبعة الاولى ١٩٨٧.

٢ ـ المرأة وأثرها في الحياة العربية. تأليف عبد الحميد فايد. منشورات دار الكتاب اللبناني. الطبعة الثانية ١٩٨٣.

٣ ـ الإعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، المجلد الرابع. منشورات دار العلم للملايين. الطبعة السادسة ١٩٨٤.

٤ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الثالث. منشورات مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

عليّة بنت المهدي

سيدة جليلة من احسن النساء وأظرفهن وأعقلهن ذات صيانة وعفة وأدب بارع، تقول الشعر الجيّد وتصوغ فيه الالحان الحسنة. هكذا اجمعت كتب الادب على وصف عليّة بنت المهدي اخت الرشيد.

ولدت عام ١٦٠هـ وكان فيها عيب في جبينها، فسترته بالعصائب المكللة بالجواهر، فأحدثت ظاهرة بين نساء عصرها هي اجمل ما يمكن ان تبتدعه في مجال الزينة والتبرّج.

قال عنها الحصري: «كانت عليّة تعدل بكثير من افاضل الرجال في فضل العقل وحسن المقال ولها شعر رائق وغناء رائع». من اقوال عليّة المأثورة: «ما حرم الله شيئا الا وقد جعل فيما حلّل منه عرضا».فبأي شيء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته».

«لاغفر الله لي فاحشة إرتكبتها قط ولا أقول في شعري عبثا».

كان الرشيد يبالغ في إكرامها واحترامها، وكان يصطحبها في اسفاره. فخرجت مرة الى خراسان وطال غيابها عن بغداد، فاستبدّ بها الشوق والحنين فكتبت على مضرب اخيها:

«ومغترب بالمرج يبكي لشجوه

وقد غاب عنه المسعدون على الحب

إذا ما أتاه الركب من نحو ارضه

تنشق يستشفى برائحة الركب»

فلما قرأه الرشيد، قال: «حنّت عليّة الى الوطن وأمرها بالرجوع الى بغداد».

يروى أن الرشيد غضب مرّة على عليّة بنت المهدي. فأمرت أبا حفص عمر بن عبد العزيز الشطرنجي وهو شاعرها بأن يقول شعرا يعتذر فيه عنها ويسأله الرضا. فقال:

«لو كان يمنع حسن العقل صاحبه

من أن يكون له ذنب الى احد

كانت عليّه أعلى الناس كلهم

من أن تكافى بسوء آخر الابد

ما لي إذا غبت لم اذكر بواحدة

وإن سقمت فطال السقم لم اعد

ما اعجب الشيء نرجوه ونضمره

وقد كنت احسب اني ملأت يدي»

كانت عليّة لشدة تأثرها من غضب اخيها، لم تستطع نظم الشعر، فكلفت شاعرها بهذه المهمة، في حين انها غنّت لحنا امام مجموعة من جواري الرشيد، وطلبت منهن ان يغنينه إياه في اول مجلس جلس فيه. فطرب طرباً شديداً، وطلب رؤية عليّة وسألها إعادة الصوت فغنته، فبكى، وقال: «لا غضبت عليك ما عشت ابدا».

من أبرز الابيات التي نظمتها عليّة في شقيقها ولحنتها الآتية:

«تفديك اختك قد حبوت بنعمة

لسنا نعد لها الزمان عديلاً

الا الخلود وذاك قربك سيدي

لا زال قربك والبقاء طويلاً

وحمدت ربي في إجابة دعوتي

فرأيت حمدي عند ذاك قليلاً»

بلغ مجموع الالحان التي صاغتها عليّة نحو إثنين وسبعين صوتاً، تناقلتها الجواري وانحنى امام إبداعها كبار الموسيقيين في ذلك العصر وخصوصا إبراهيم الموصلي.

يروى في هذا المجال ان الرشيد زار مرة إبراهيم الموصلّي، والتقى عنده بجاريتين تابعتين لعليّة، فقال لإحداهنّ: غني، فغنّت، واحسنت. فقال الرشيد: «يا إبراهيم لمن الشعر؟ ما أملحه! ولمن اللحن؟ ما أظرفه!» فقال: «لا علم لي». فسأل الجارية، فقالت: «لسيدتي» فسألها: «من سيدتك؟» فأجابت: «عليّة بنت المهدي، اخت امير المؤمنين». فقال: الشعر واللحن؟ فقالت: نعم. فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه الى الأخرى، وطلب منها ان تغني. فغنت وأجادت بدورها فسأل إبراهيم عن الغناء والشعر. فقال: لا علم لي يا امير المؤمنين. فسأل الجارية: «لمن الشعر واللحن؟» فقالت: «لسيدتي». فسألها: «ومن سيدتك»؟ فأجابت: «عليّة اخت امير المؤمنين». فوثب الرشيد وقال: «يا إبراهيم، إحتفظ بالجاريتين». ومضى الى عليّة، ولما رآها طلب منها أن تغنيه. فغنته ابياتاً كان سمعها من إحدى الجاريتين. فطرب طرباً شديداً وقبّل رأسها وقال لها: «يا سيدتي كل هذا تمتلكينه ولا علم لي به؟».

يروي إسماعيل بن الهادي أنه دخل يوما الى المأمون ابن هارون الرشيد، فسمع غناء اذهله. فقال له المأمون: «ما لك»؟ قال: «قد سمعت ما اذهلني، وكنت اكذب بأن الارغن الرومي يقتل طربا، وقد صدقت الآن بذلك». قال: «او لا تدري ما هذا؟» قال: «لا والله!» قال: هذه عمتك علية تلقي على عمّك إبراهيم صوتا من غنائها».

لما توفي الرشيد، حزنت عليّة حزنا شديدا وتركت الغناء والشعر فترة من الزمن. الا ان الامين إستطاع ان يعيدها اليهما مكرمة فقالت:

اطلت عاذلتي لومي وتفنيدي

وانت جاهلة شوقي وتسهيدي

لا تشرب الراح بين المسمعات وزر

ظبياً غزيراً نقي الخدّ والجيد.

قد رنحته شمول فهو منجدل

يحكي بوجنته ماء العناقيد

قام الامين فأغنى الناس كلهم

فما فقير على حال بموجود.»

حدّثت عرّيب المغنية فقالت: «احسن يوم مرّ بي في الدنيا وأطيبه يوم إجتمعت فيه مع إبراهيم بن المهدي واخته عليّة، فغنتهم من صنيعتها في شعرها:

«تجنّب فإن الحب داعية الحبّ

وكم من بعيد الدار وهو مستوجب القرب

تفكر، فإن حدثت ان اخا هوى

نجا سالما خارج النجاة من الحب

فأحسن ايام الفتى يومه الذي

تروع بالتحريش فيه وبالعتب

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا

فأين حلاوات الرسائل والكتب...»

فما سمعت مثل ما سمعت منها واعلم اني لا اسمع مثله ابدا. كان الناس

يقولون: «لم يرَ في جاهلية ولا إسلام اخ وأخت احسن غناء من ابراهيم بن المهدي واخته عليّة».

لها ديوان شعر معروف بين الادباء، جمعت فيه معظم قصائدها. من شعرها:

«ما لي ارى الابصار بي جافية

لم تلتفت مني الى ناحية

لا ينظر الناس الى المبتلي

وإنما الناس مع العافية

صحبي سلوا ربكم العافية

فقد دهتني بعدكم داهية

صار مني من بعدكم سيدي

فالعين من هجرانه باكية

وقد جفاني سيدي ظالماً

فأدمعي منهلة واهية.

توفيت عليّة عام ٢١٠ هـ ولها خمسون عاماً.

ذهبت عليّة وغابت، الا ان صورتها طبعت في اذهان اهل عصرها وفي العصور اللاحقة كإحدى ظريفات الدهر، ذكاء وجمالا وغناء وشعرا، ورفعة في المقام... تنقلت اشعارها والحانها عبر الزمان وبقيت من ارق ما نظم في الشعور وفي الكرامة والبطولة والشرف... فكانت عن حق ظاهرة في عصرها، إستمرت متأججة وقادة على ألسنة الرواة وفي الكتب الى ان وصلت الى عصرنا الحالي. فإذا بقصائدها تخاطب الاحساس وتحاكي الروح اليوم وكأنها بنت هذا العصر.

المراجع

١ ـ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام. جمعه ورتبه ووقف على طبعه بشير يموت. منشورات المكتبة الاهلية في بيروت. الطبعة الاولى ١٩٣٤.

٢ ـ كتاب الاغاني. تأليف ابي الفرج الاصبهاني علي بن الحسين. المجلد العاشر. دار إحياء التراث.

٣ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الثالث. منشورات مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٤ ـ الاعلام، قاموس تراجم، لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. المجلد الثالث. منشورات دار العلم للملايين الطبعة السادسة ١٩٨٤.

عنان بنت عبد الله

عنان الناطفية، شاعرة، اديبة، وكاتبة مجيدة، اول من اشتهر بقول الشعر في الدولة العباسية. تحدت كبار شعراء عصرها وتفوقت عليهم.

عنان بنت عبد الله. صفراء. مولدة من مولدات اليمامة. فيها نشأت وترعرعت. اشتراها رجل من بغداد يدعى «الناطفي». وفي داره تفتقت موهبتها الشعرية، فحول منزله من اجلها الى منتدى العظماء والشعراء والعلماء. وكان امراء الشعر يأتونها، فيلقون عليها البيت أو البيتين فتجيزهما بما لم يخطر لهم على بال.

روى حفصة شاعر المهدي والرشيد ان الناطفي التقاه مرة، فدعاه الى بيته، فانطلق معه، ودخل الى عنان قبله، وقال لها: «جئتك باشعر الناس مروان بن ابي حفصة». وكانت تشكو علة. فأجابته: «إني عن مروان في شغل» غضب الناطفي وهوى عليها بالسوط، فقال لمروان: «ادخل». دخل مروان وهي تبكي ورأى الدمع ينحدر من عينيها، فقال:

«بكت عنان فجرى دمعها

كالدرّ اذ ينسلّ من خيطه»

فأجابت مسرعة:

«فليت من يضربها ظالما

تجف يمناه على سوطه»

فقال مروان متأثرا: «اعتق ما املك ان كان في الجن والانس اشعر منها».

بلغت شهرة عنان الشاعرة، حدا دفع كل من يتذوق هذا الفن الى سماعها ومبارزتها الشعر. يروى في هذا المجال ان رجلا تصفح كتبا، فوجد فيها بيتا، اجتهد ان يجد من يجيزه، فلم يجد.

فنصحه صديقه بعنان جارية الناطفي فأتاها وانشدها:

«ويبكي فأبكى رحمة لبكائه

اذا ما بكى دمعا بكيت له دما

الى أن رثى لي كل من كان موجعا

واعرض خلو القلب عني تبرما»

اجادة عنان الشعر وسعة شهرتها دفعتا ابو نواس اكبر شعراء عصره الى مبارزتها، فأتاها يوما، ورآها جالسة تبكي وخدها على رزة في مصراع الباب، وكان الناطفي ضربها، فأومأ الى ابي النواس ان يجربها في الشعر فقال:

«عنان لو جُدت لي فإني مٰن

عمري في (امن الرسول بما)

اي في آخر عمري، لان امن الرسول بما انزل اليه من ربه، آخر آية في البقرة.

فردت عليه:

«فإن تمادى ولا تماديت في

قطعك حَبْلي اكن كمن ختما»

فرد عليها:

«او نظرتْ عينه الى حجر

ولد فيه فتورها سقما»

كانت عنان، لشدة حضورها وكلمتها القوية، تسكت الشعراء امامها.

روى في هذا المجال جعفر بن قدامة في كتابه: «بلغني ان عنان جارية الناطفي، دخل عليها احد الشعراء، فقال لها الناطفي: عاييه! فقالت:

«سقيا لتاطول لا ارى بلدا

يسكنه الساكنون يشبهها»

فقال:

«كأنها فضة مموهة

اخلص تمويهها مموهها»

فقالت:

«أمن وخفض ما كبهجتها

أرغد ارض عيشا وأرفهها»

لم يستطع الشاعر المتابعة، بعدما تفوقت عليه، فسكت عند هذا الحد.

في مكان آخر من كتابه، روى ايضا جعفر بن قدامة عن اخبار عنان فقال:

حدثني ابو العيناء، عن العباس ابي رستم قال:

دخلت انا وابان اللاحقي على جارية الناطفي في يوم صائف وهي جالسة في الخيش فقال لها ابان:

«لذة عيشِ الصّيفِ في الخيشِ

فقالت: «لا في لقاء الجيشِ بالجيشِ

فقلت لها معرضا لها: ما احسن ما قال جرير:

«ظَلِلْت أراعي صاحبي تجلدا

وقد علقتني من هواكِ علوق»

فقالت غير متوقعة:

إذا عقل الخوف اللسان تكلمت

بأسراره عين عليه نطوق»

بلغت شهرة عنان الشاعرة اسماع هارون الرشيد، ووصلت اخبارها الى البلاط. وبناء لرغبته، عرضت عليه، دخلت تتبختر. قال لها: اتحبين ان اشتريك؟ قالت: ولم لا احب ذلك يا احسن الناس خَلقا وخُلقا؟

فقال لها: اما الخَلق فظاهر، فما علمكِ بالخُلق؟

قالت: رأيت شرارة، قد طاحت على ثوبك من المجمر، لما جاء الخادم بالبخور اليك فسقطت على ثوبك فأحرقته، فوالله ما قطبت لها وجها، ولا راجعت من جناها حرفا!

اعجب هارون الرشيد بسرعة بديهتها وذكائها الحاد، الا انه اعرض عن شرائها. وفي احدى الليالي، جلس معه سماره فغناه بعض من حضر من المغنين بعض الابيات لجرير حيث يقول:

«ان الذين غدوا بلبك غادروا

وشلا بعينك لا يزال معينا»

طرب الرشيد لها طربا شديدا واعجب بالابيات وقال لجلسائه: «هل منكم احد يجيز هذه الابيات وله سبعة آلاف دينار، فقالوا، ولم يصنعوا شيئا.

عندها تدخل احد الخدم وقال: انا بها لك يا امير المؤمنين.

فأسرع الى الناطفي وقال له: استأذن لي على عنان. فأذنت له، فدخل واخبرها الخبر. فقالت: «ويحك، وما الابيات؟» فأنشدها اياها فقالت له اكتب:

«هيجت بالقول الذي قد متله

داء بقلبي ما يزال كمينا

قد اينعت ثمراته من طينها

وسقين من ماء الهوى فروينا

كذب الذين تقولوا يا سيدي

إن القلوب اذا هوين هوينا»

وقالت له: دونك الابيات واذا كان الغد انجز الكمار (العقد)، فدفع اليها السبعة آلاف دينار ورجع الى هارون الرشيد واعطاه الابيات. وبعدما قرأها قال: ويحك، من قالها. قال: عنان جارية الناطفي. قال: «خلعت الخلافة من عنقي ان باتت الا عندي». فبعث الى مولاها، واشتراها منه بثلاثين الفا».

في بلاط هارون الرشيد، اجادت عنان، وتصدرت المجالس الادبية وراح يتبارى معها كبار الشعراء، ويتناقل قصائدها الرواة. فذاع صيتها ولقبت بأشعر الناس.

بلغ خبر عنان الشاعر بكر بن حماد الباهلي. فانتقد من لقبها بأشعر الناس. فقصدها مرة واراد مبارزتها. ولما رآها بادرها الى القول: ان لي حاجة. بيت وجدته على ظهر كتاني لم اقرضه ولم اقدر على اجازته».

قالت: قل. فانشدها:

«فما زال يشكو الحب حتى حسبته

تنفس في احشائه فتكلما»

فأطرقت ساعة ثم انشدت:

«ويبكي فأبكي رحمة لبكائه

إذا ما بكى دمعا بكيت له دما»

دخل ابو العباس بن رستم برفقة ابان بن عبد الحميد على عنان وهي في خيش. فقال لها ابان: العيش في الصيف خيش. فقالت مسرعة: اذ لا قتال وجيش. فأنشدها ابن رستم لجرير قوله:

«ظللت اواري صاحبي صبابتي

وهل علقتني من هواك علوق»

فقالت مسرعة:

«اذا عقل الخوف اللسان تكلمت

بأسراره عين عليه نطوق»

تبارت عنان مع معظم شعراء الدولة العباسية، الا انها اجادت خصوصا مع ابي نواس. ولها معه جلسات شعرية طويلة، ذكرها في ديوانه. ويذكر انه جلس مرة الى عنان فقالت: كيف علمك بالعروض وتقطيع الشعر يا حسن؟ قال: جيد قالت: تقطع هذا البيت:

«اكلت الخردل الشامي في صحفة خباز

فلما ذهب يقطعه به ضحكت. فأمسك عنها وأخذ في ضروب من الاحاديث. ثم عاد سائلا لها: كيف علمك بالعروض؟

قالت: حسن يا حسن، فقال:

قطعي هذا البيت:

حولوا عنا كنيستكم

يا بني حمالة الحطب.

ولما ذهبت تقطعه ضحك ابو نواس. فقالت: «قبحك الله، ما برحت حتى اخذت بثأرك.

توفيت عنان عام ٢٢٦ هـ. قال عنها ابو علي القالي: «عنان الشاعرة اليمامية، كانت بارعة الادب، سريعة البديهة، وكان فحول الشعراء يساجلونها فتنتصف منهم. اخبارها مدونة. خرجت الى مصر حين اعتقت وماتت هناك.

المراجع

١ ـ الاماء الشواعر. مخطوط جديد لصاحب الاغاني، ابي الفرج الاصبهاني. تحقيق د. جليل العطية. منشورات دار النضال. الطبعة الاولى ١٩٨٤

٢ ـ الاعلام. قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تاليف خير الدين الزركلي. المجلد الخامس. دار العلم للملايين. الطبعة السادسة ١٩٨٤.

٣ ـ المرأة العربية في جاهليتها واسلامها. تأليف عبد الله عفيفي. الجزء الثالث. منشورات دار الرائد العربي. الطبعة الثانية ١٩٨٢.

٤ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٥ ـ العقد الفريد. تأليف شهاب الدين المعروف بابن عبد ربه الاندلسي. تقديم الاستاذ خليل شرف الدين. الجزء السادس. منشورات دار مكتبة الهلال. الطبعة الاولى ١٩٨٦.

فريدة

مغنية حسنة الوجه والغناء حادة الفطنة والفهم. كانت لعمرو بن بانة ثم اهداها الى الواثق فحظيت لديه وعظم مكانها عنده.

عرفت فريدة بإجادة الغناء على اصوله، وإحكام طبقاته. ربيت عند عمرو بن بانة مع جارية اخرى اسمها «خل». فنشأت بينهما علاقة اخوة، ما لبثت ان زادت متانة بعد انتقالها الى قصر الواثق.

يذكر عمرو بن بانة انه دخل الواثق مرة وغناه:

قلت حلا فاقبلي معذرتي

ما كذا يجزي محب من احب

فأومأ اليه الواثق ان يتقدم الى الستارة ويلقيه على فريدة، فألقاه عليها. فما كان منها إلا ان بادرته الى القول: «هو حل او خل» كيف هو؟ فأدرك انها سألته عن صديقتها «خل» في خفاء من الواثق.

في بلاط الواثق، ترعرعت موهبتها في الغناء واجادت هذا الفن، بحيث اصبحت مضرب المثل، يقصدها الشعراء وكبار ائمة الغناء للاستماع الى غنائها الاصيل. وكان اسحاق استاذ الغناء الاول، يقصدها، ويختار لها اجمل الالحان، نظرا لعذوبة إنشادها، ولتقدير الواثق لها.. وكان هذا الاخير معجبا بها الى حد الهيام، يحرص على مداراتها وعلى الحفاظ عليها كأنها جوهرة ثمينة في داره. ولم يكن يستعذب مجلسه الا بوجودها فكانت اثيرة عنده جدا وحظية لديه جدا.

إجتمعت مرة ريِّق وخشف الواضحية. فتذاكرتا احسن ما سمعتاه من المغنيات.

فقالت ريِّق: «شارية احسنهن غناء ومتيَّم. وقالت خشف: عريب وفريدة، ثم اجتمعنا على تساويهن وتقديم متيَّم في الصنعة، وعريب في الغزارة والكثرة، وشارية وفريدة في الطيب وإحكام الغناء».

كانت فريدة في المقابل، تبادل الواثق الوفاء والاحترام ولم تتوان في مجالسه في إعطاء كل ما تملك من الاجادة. فكانت تتحول في كل مرة الى مجالس طرب تناقل اخبارها الرواة وألهمت الادباء والشعراء.

كان الواثق يجيد بدوره صنع الالحان. وكلما صنع صوتا يستدعي إسحاق ويطلب رأيه فيه وإصلاح الخلل في حال وجوده. وصادف مرة وجود مخارق عنده. فقال له: «إنما يستجيد صنعتك اذا حضر ليقاربك ويستخرج ما عندك. فاذا فارق حضرتك قال: في صنعتك غير ما تسمع». اجابه الواثق: «انا احب ان اقف على ذلك». فقال له مخارق: فأنا اغنيه، ولا يعلم انه لك ولا سمعه من قبل او من احد. قال: إفعل ولما دخل اسحاق غناه مخارق، وتعمد ان يفسد اللحن في مواضع خفية لم يعلمها الواثق. ولما غناه قال الواثق: «كيف ترى هذا الصوت»؟ قال له: «فاسد غير مرضي». فأمر به، فسحب من المجلس واخرج منه وامر بنفيه الى بغداد.

وفي احد الايام، جرى ذكره في مجلس الواثق امام فريدة. فهالها ما جرى لاستاذ الموسيقى الاول ولجأت الى فطنتها لتبرئة ساحته فقالت للواثق: «يا امير المؤمنين انما كاده مخارق فأفسد عليه الصوت من حيث اوهمك انه زاد فيه بحذقه نغما وجودة.

وإسحاق يأخذ على نفسه قول الحق في كل شيء ساءه او سرَّه ويفهم من غامض علل الصنعة ما لا يفهمه غيره. فليحضره امير المؤمنين ويحلفه بغليظ الايمان ان يصدقه عما يسمع واغنيه اياه، حتى يقف على حقيقة الصوت. فاذا كان فاسدا فصدق عنه لم يكن عليه عتب، ووافقناه عليه حتى كان يستوي فليس يجوز ان يتركه فاسدا اذا كان فيه فساد. وان كان صحيحا قال فيه ما عنده. اقنعته حجة فريدة، فأرسل اليه كتابا طالبا فيه منه الحضور. فحضر اسحاق، واظهر الواثق الرضى عنه ولزمه اياما ثم احلفه ليصدقن عما يمر في مجلسه.

فحلف له اسحاق. فغنى الواثق، ثم غنت فريدة الصوت الآتي:

فاذا بخلت فالبخل منها سجية

وإن بذلت اعطت قليلا واكدت

سأله الواثق عنه فرضي عنه واستجاده وقال له: «ليس على هذا سمعته في المرة الاولى. وأبان عن المواضع الفاسدة واخبر بافساد مخارق اياها. فسكن غضبه وتنكر اسحاق لمخارق مدة. عن مجالس الواثق، تحدث محمد بن الحارث بن شخير واصفا ما كان لفريدة من الاجادة والمكانة في نفس الواثق وفي نفوس الحاضرين. قال: كانت لي نوبة في خدمة الواثق في كل جمعه. اذا حضرت ركبت الى الدار. فان نشط اقمت عنده. وان لم ينشط انصرفت. وكان رَسْمُنا ان لا يحضر احد منا الا في يوم نوبته. فاني لفي منزلي في غير يوم نوبتي إذ ارسل الخليفة قد هجموا علي وقالوا لي: احضر قلت «الخير»؟ قالوا: خير. قلت: ان هذا يوم لم يحضرني فيه امير المؤمنين قط، ولعلكم غلطتم. قالوا: الله المستعان، لا تطل وبادر، فقد امرنا الا ندعك تستقر على الارض. داخلني فزع شديد، وخفت ان يكون ساع قد سعى بي، او بلية قد حدثت في رأي الخليفة علي. تقدمت ووافيت الدار. ذهبت لأدخل من حيث كنت ادخل عادة، فمنعت. اخذ بيدي الخدم، فادخلوني وعدلوا بي الى ممرات لا اعرفها، فزاد ذلك في جزعي وفي همي. ثم لم يزل الخدم يسلمونني من خدم الى خدم، حتى افضيت الى دار مفروشة الصحن، ملبسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب، ثم افضيت الى رواق ارضه وحيطانه ملبّسة بمثل ذلك، واذا الواثق في صدره، على سرير مرصَّع بالجواهر، وعليه ثياب منسوجة بالذهب، والى جانبه فريدة جاريته، عليها مثل ثيابه، وفي حجرها عود. ولما رآني قال لي: اسرعت والله يا محمد الينا. فقبلت الارض ثم قلت: يا امير المؤمنين خيرا! قال: خيراً، اما ترانا! طلبت والله ثالثا يؤنسنا فلم أرَ أحق بذلك منك، فبحياتي بادر فقل شيئا وبادر الينا. فقلت: قد والله يا سيدي اكلت وشربت ايضا. قال: فاجلس فجلست واندفعت فريدة تغني:

«اهابك إجلالا وما بك قدرة

عليَّ ولكن ملء عين حبيبها

وما هَجَرَتكْ النفس يا ليل انها

قَلَتْكِ ولا ان قلَّ منك نصيبها

فجاءت والله بالسحر. وراحت تغني الصوت تلو الصوت، واغني انا في خلال غنائها، فمرَّ لنا احسن ما مرَّ لأحد. وانا لكذلك، ضربها الواثق ضربة اوقعتها على الارض وكسرت عودها وفتتت اوتاره، وراحت تعدو وتصيح. بقيت واجما منزوع الروح، ولم اشك في ان عينه وقعت علي وقد نظرت اليها ونظرت الي. فأطرق ساعة، واطرقت اتوقع ضرب عنقي. ونحن على هذه الحال، نظر الي فجأة وقال: يا محمد. فوثبت. فقال: ويحك، ارأيت اغرب مما تهيأ علينا! قلت: يا سيدي، الساعة والله تخرج روحي، فعلى من اصابنا بالعين لعنة الله! فما كان السبب؟ الذنب؟ قال: لا والله! ولكن فكرت ان جعفرا يقعد هذا المقعد، ويقعد معها كما هي قاعدة معي، فلم اطق صبرا، وخامرني ما اخرجني الى ما رأيت. فسرى عني وقلت: بل يقتل الله جعفرا، ويحيا امير المؤمنين ابدا، وقبلت الارض وقلت: يا سيدي إرحمها ومر بردها. فأمر بردها. فعادت وعليها اجمل الثياب وفي يدها عودها. ولما رآها بكى، فبكت بدورها.

وقالت: ما ذنبي يا مولاي وسيدي وبأي شيء استوجبت هذا؟ فأعاد عليها ما قال لي وهو يبكي وهي تبكي.

فقالت: سألتك بالله يا امير المؤمنين إلا ضربت عنقي الساعة وارحتني من الفكر في هذا، وارحت قلبك من الهم بي. وراحت تبكي ويبكي، ثم مسحا اعينهما وعادت الى مكانها، وأومأ الى الخدم، فمضوا واحضروا اكياسا فيها الذهب والدنانير، والثياب الفاخرة، وجاء خادم بصندوق ففتحه واخرج منه عقدا ما رأيت قط مثل جوهر كان فيه، فألبسها اياه. ثم عدنا الى امرنا والى احسن مما كنا. فلم نزل كذلك، الى الليل ثم تفرقنا».

هكذا، كانت فريدة تعامل عند الواثق، وتوصلت بذكائها وثقافتها الى ان تنتزع الاحترام ليس من الخليفة فحسب، انما من كل من يواكب مجالسها. وبقيت تتمتع

بالمعاملة الحسنة والميزة الى ان توفي الواثق. عندها ضربها الدهر ضربته القاضية.

بعد الواثق تقلّد المتوكل مقاليد الحكم. وكان سمع بأمرها وبنبوغها بالغناء. وما ان وصل الى القصر، حتى استدعاها وكانت لا تزال في ثياب الحداد تبكي الواثق وتندبه، واعجب بجمالها وامرها ان تغني فأبت بسبب حزنها. ولم يمض وقت طويل، حتى تزوجها المتوكل فأمرها بالغناء. فأبت ايضا وأيضا وفاء للواثق فما كان منه الا ان أقام على رأسها خادما وأمره ان يضرب رأسها ابدا او تغني. فاندفعت وغنت:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي

عليه الموت يطرق او يغادي

فريدة التي عرفت مع الواثق نمو موهبتها، لم تستطع الاجادة في الغناء من بعده. فموته صدمها الى درجة كبيرة وبقيت طوال حياتها متأثرة لا تقوى على الانشاد.

حدث محمد بن الحارث عن امرها مع المتوكل فقال: «... وانا في منزلي في احد الايام، هجم علي رسل الخليفة، فما امهلوني حتى ركبت وصرت الى الدار، فأدخلت والله الحجرة بعينها، واذا بالمتوكل في الموضع الذي كان فيه الواثق على السرير بعينه والى جانبه فريدة. فما رآني قال: ويحك! اما ترى ما انا فيه من هذه! انا منذ غدوت اطالبها بأن تغنيني فتأبى ذلك! فقلت لها: يا سبحان الله، اتخالفين سيدك وسيدنا وسيد البشر! بحياته غنّي! فعرفت والله ثم إندفعت تغني!

«مقيم بالمجازة من قنوتي

واهلك بالاجيفر فالثماد

فلا تبعد فكل فتى سيأتي

عليه الموت يطرق أو يغادي»

ثم ضربت بالعود الارض، ورمت بنفسها عن السرير ومرَّت تعدو وهي تصيح: واسيداه! فقال لي: ويحك! ما هذا؟ فقلت: لا أدري والله يا سيدي فقال: فما ترى؟ فقلت! ارى ان انصرف انا وتحضر هذه ومعها غيرها، فان الامر يؤول الى ما يريد امير المؤمنين. قال: فانصرف في حفظ الله! فانصرفت ولم ادر ما كانت القصة.

بعد هذه الحادثة، لم يعرف من اخبار فريدة الكثير سوى ان محمد بن عبد الملك سمعها مرة تغني بالصدفة وتندب:

اخلاي بي شجو وليس بكم شجو

وكل إمرىء مما بصاحبه خِلو

اذاب الهوى لحمي وجسمي ومفصلي

فلم يبق الا الروح والجسد النِّضْو

فما سمع قبله ولا بعده غناء احسن منه.

المراجع

١ ـ القيان، تأليف ابي الفرج الاصبهاني. تحقيق جليل العطية. منشورات رياض الريس للكتب والنشر.

٢ ـ المرأة واثرها في الحياة العربية. تأليف عبد الحميد فايد. منشورات دار الكتاب اللبناني. مكتبة المدرسة. الطبعة الثانية.

٣ ـ كتاب الاغاني تأليف ابي الفرج الاصبهاني. المجلد الرابع. منشورات دار إحياء التراث العربي.

٤ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة. بيروت الطبعة الثالثة.

فضل الشاعرة

«كل ما وراء العدو من نفس ومال فهو فيء الله أفاءه على المسلمين وولي امره إمامهم، فإن شاء تجاوز عنه ومن به، وإن شاء بسط عليه يده وعاد به على ذوي الحق فيه». بحكم هذه السنة، كانت بنات العدو والنسوة من مغانم الحرب في كل بلد كان للسيف حكم فتحه وإمتلاكه. وكان قواد الدولة وولاة الامصار يجمعون من أولئك أنداهنّ صوتا وأمثلهن ادبا ويرسلونهن الى الخليفة. روى إبن الاثير في هذا المجال ان المتوكل اهدي اليه في يوم واحد ٢١ الف جارية.

مع بداية العصر العباسي وإزدهار الحياة الادبية فيه وتفجر التيارات المختلفة والثقافات، تحوّلت الجواري اللواتي إمتلكن المواهب الشعرية والغنائية الى رائدات، سجّلن في النوادي الشعرية والموسيقية آثارا وروائع، تناقلها الرواة، وسجلتها كتب الادب، كمحطة طبعت الشعر العربي بطابع خاص، مزج بين الشفافية وتنوع الثقافة وعمق القصيدة.

إشتهر العصر العباسي بالتباري بين الشعراء والجواري يبدأ الشاعر ببيت من الشعر، فتعارضه الجارية بمثله على وزنه ورويّه وفي بقية معناه. وكثيرا ما تكون الغلبة للنساء، إذ كنَّ أسرع بديهة وأرقّ طبعا.

ومن أبرز ما سجل في هذا المجال التحدي بين «علي بن الجهم» و«فضل» الشاعرة في حضور المتوكل. إذ القى عليها الاول بيتا غريب القافية ليعجزها قال:

«لاذ بها يشتكي اليها

فلم يجد عندها ملاذا».

فبادرته فورا الى القول:

«ولم يزل ضارعا اليها

تهطل أجفانه رذاذا

فعاتبوه فزاد عشقا

فمات وجدا فكان ماذا»

من هي فضل الشاعرة التي تناقلت الاجيال قصائدها وتندرت ببداهتها ورقة إحساسها؟ تعتبر فضل من أبرز الشاعرات المجيدات في العصر العباسي. وهي جارية مولَّدة من البصرة، وكانت أمها من مولّدات اليمامة. نشأت في دار شاعر من بني عبد القيس. فأدبها وخرّجها، ثم إشتريت وأهديت الى المتوكّل.

كان عصر المتوكّل عصر الشعر الساحر المنبعث عن الطبع الرقيق. وقد إجتمع فيه من الشعراء ذوي الديباجة الرقيقة والاسلوب الغنائي البديع ما لم يجتمع في عصر من العصور. ففيه ظهر البحتري وسعيد بن حميد وعلي بن الجهم وإبراهيم إبن العباس وإبن الرومي...

في هذا الجو، ظهرت فضل، فما قصرت عن هؤلاء جميعا، وكثيرا ما تفوّقت عليهم في الشعر الغنائي الذي يعتمد على فرط الرقة وقوة التأثير.

إشتهرت فضل بأنها كانت حسنة الوجه والقوام، أديبة فصيحة سريعة البديهة، مطبوعة على قول الشعر.وأجمع الادباء والشعراء على ان لم يكن في نساء زمانها أشعر منها.

قال إبراهيم بن المهدي: «كانت فضل الشاعرة من أحسن خلق الله وأفصحهم كلاما وأبلغهم في مخاطبة وأثبتهم في محاورة. قلت يوما لسعيد بن حميد: أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتقيدها وتخرجها. فقد اخذت نحوك في الكلام وسلكت سبيلك. فقال لي وهو يضحك: ما أخيب ظنَّك ليتها تسلم مني لأخذ كلامها ورسائلها، والله يا أخي لو أخذ أفاضل الكتاب وأماثلهم عنها لما إستغنوا عن ذلك».

يوم أهديت الى المتوكل، دخلت الى مجلسه، ووقفت في حضرته، فبادرها الى القول: «أشاعرة أنت»؟ قالت: «كذا زعم من باعني وإشتراني». فضحك وقال لها: «أنشدينا شيئا من شعرك».

فأنشدته:

«إستقبل الملك إمام الهدى

عام ثلاث وثلاثينا

خلافة أفضت الى جعفر

وهو إبن سبع بعد عشرينا

إنا لنرجو يا إمام الهدى

أن تملك الناس ثمانينا

لاقدس الله إمرءا لم يقل

عند دعائي لك آمينا».

(تعني بثلاث وثلاثين سنة ثلاث وثلاثين ومائتين من سني الهجرة).

إستحسن المتوكل الابيات وأمر لها بخمسة آلاف درهم.

كانت فضل مضرب المثل في حسن البديهة وقوة الارتجال. وقد حدّث إبن أبي فاضل أن أحد الشعراء القى أمامها هذه الابيات:

«ومستفتح باب البلاء بنظرة

تزود منها قلبه حسرة الدهر»

فأجابته بسرعة:

«فوالله ما يدري أتدري بما جنت

على قلبه أم أهلكته وما تدري».

ذكاء فضل وشخصيتها الدائمة الحضور، دفعا المتوكل الى تخصيص المجالس الشعرية الدائمة في بلاطه بغية الاستماع الى شعرها المرتجل في غالب الاحيان. كذلك، لم يتورع من شدة اعجابه بها من ترداد أجمل ما تقول وخصوصا هذه الابيات:

«إن من يملك رقّي

مالك رقَّ الرقاب

لم يكن يا أحسن العالم

هذا في حسابي».

كانت في كل مجلس تدهش السامعين، فذاع صيتها، وصار يتردد عليها الرواة لحفظ قصائدها والتغني بها، فاعتبرت بحق احدى نابغات العصر العباسي من الإماء. كذلك، اشتهرت فضل باحترامها الكبير لزوار مجلسها الشعري وتقديرها الفائق للشعراء الحاضرين، ولم تكن تتأخر عن تلبية أي مطلب لها بالاستفاضة في قول الشعر.

حدَّث ابو يوسف بن الدقاق الضرير. قال: «صرت أنا وأبو منصور الباخرزي الى منزل فضل الشاعرة فحُجِبْنَا عنها وانصرفنا وما علمت بنا ثم بلغها مجيئنا وانصرافنا فكرهت ذلك وغمَّها، فكتبت الينا تعتذر:

«وما كنت أخشى أن تروا لي زلّة

ولكن أمْرَ اللهِ ما عَنه مَذهبُ

أعوذُ بحسن الصفح منكم وقَبْلَنا

بصَفْحٍ وعفو ما تعوَّذ مذنب»

فكتب اليها أبو منصور الباخرزي:

«لئن أُهْدِيَت عتباكِ لي ولاخوتي

فمِثْلُك يا فضلَ الفضائل يُعْتبُ

إذا إعتذر الجاني من العذر ذَنْبَه

وكلّ إمرىء لا يقبل العُذْرَ مذنبُ»

جمعت فضل في شخصيتها بين رقة الشعور وقوة الهجاء. وكانت تستعمل في هجائها أقسى الكلام. ولها في هذا المجال مناظرة شهيرة مع «خنساء» جارية هشام المكفوف وكانت شاعرة. وقد انتهت بتفوق فضل وبإنكفاء «خنساء» التي ذاقت من القصائد أمرَّها. أما كلامها في رقة الشعور فمن أجمله هذه الابيات:

«لأكتمنَ الذي بالقلب من حُرقٍ

حتى أموت ولم يعلم به الناس

ولا يقال شكا من كان يعشقه

إن الشكاة لمن تهوى هي اليأس».

أعجب الشاعر سعيد بن حميد (من أولاد الدهاقين وأصله من النهروان الاوسط، ولد ونشأ في بغداد، وكان كاتبا وشاعرا حسن الكلام وفصيحه)، وكان من رواد مجالسها الشعرية الدائمين، وقال فيها القصائد من أجملها:

«تنامين عن ليلي وأسهره وحدي

وانهي جفوني أن تبثك ما عندي

فإن كنت لا تدرين ما قد فعلته

بنا فانظري ماذا على قاتل العمد؟»

كانت فضل تهاجي الادباء ولها مدائح كثيرة. وكانت تتشيّع وتتعصب لأهل مذهبها وتساعدهم بكل ما لديها من جاه عند الملوك والأشراف. أما سعيد بن حميد

الذي ارتبط اسمه بها فنظم فيها أجمل القصائد، فكان من أشد الناس نصبا وانحرافا عن أهل البيت. وكانت فضل نهاية في التشيّع ظاهرته ثم انتقلت الى مذهبه ولم تزل كذلك الى أن توفيت.

الى جانب الذكاء الحاد وسرعة البديهة وقوة الهجاء كانت فضل على جانب كبير من الوفاء تجاه أصدقائها، وخصوصا المتوكل. وأجمل ما نظمت من شعر يوم بلغها قتل المنتصر المتوكل، وهي تبكي:

«إن الزمان بذحلٍ كان يطلبنا

ما كان أغفلنا عنه وأسهانا!

ما لي وللدهر قد أصبحت هِمتّه

ما لي وللدّهر ما للّدهر لا كانا!»

جمعت فضل الخفة والروح، وتنذّر بنوادرها الشعراء والأدباء والرواة داخل مجالسها وخارجها. وروى علي بن الجهم في ذلك فقال:

«كنت يوما» عند فضل الشاعرة فلحظتها لحظة رأيتها، فقالت:

«يا ربّ رامٍ حسن تعرضه

يرني ولا أشعر أني غرضه»

فقلت:

«أي فتى لحظك ليس يمرضه

وأي عهد محكم لا ينقضه»

فضحكت، وقالت: خذ في غير هذا الحديث».

توفيت «فضل» عام ٢٦٠ هـ. وفي المستظرف للسيوطي أنها توفيت عام ٢٥٧ هـ. الا أن قصائدها البالغة الشفافية لا تزال شاهدة على نبوغها في عصر لم يبرز فيه من الشعراء الا الذين قويت شاعريتهم، في حين كانوا في العصور الماضية

يعتمدون على الاسباب السياسية وغيرها... والملاحظ أنهم في العصر العباسي أقل من الذي سبقه، وتميز شعرهم بصيغة خاصة. نجحت فضل ببديهتها وذكائها في طبع شعرها بها، فضاهت قصائدها كبار الشعراء، فكانوا يحسبون لها الف حساب وتسودهم الرهبة في مجالسها. فاعتبرت بحق نابغة شعراء عصرها.

المراجع

١ـ تاريخ آداب اللغة العربية. مؤلفات جرجي زيدان الكاملة. المجلد ١٣. منشورات دار الجيل بيروت.

٢ ـ كتاب الاغاني. تأليف أبي الفرج الاصبهاني. المجلد التاسع عشر. منشورات دار احياء التراث العربي.

٣ـ تاريخ العرب. الجزء الثاني. تأليف الدكتور فيليب حتي.

٤ـ اعلام النساء في عالمي العرب،والاسلام. تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة. الجزء الرابع

٥ـ المرأة العربية في جاهليتها واسلامها. تأليف عبد الله عفيفي. منشورات دار الرائد العربي.

ليلى بنت عبد الله الاخيلية

شاعرة من أبرز شاعرات العرب، أجادت قول الشعر سواء في الرثاء أو في المدح، فذاع صيتها وانتشرت قصائدها على ألسنة الرواة، وغدت من أهم شعراء عصرها.

أحبها توبة بن الحمير، الا أن اهلها رفضوا تزويجها إياه، وزوجوها من بني الادلع. ولما بلغها خبر مقتله من قبل بني عوف، قالت ترثيه:

نظرت ودوني من غمامة منك

وبطن الردى من أي نظرة ناظر

وتوبة أحيى من فتاة حيية

وأجرأ من ليث بخفّان خادر

ونعم فتى الدنيا وإن كان فاجراً

ونعم الفتى إن كان ليس بفاجر.

وصلت أخبار ليلى وتوبة الى معاوية بن أبي سفيان، فاستدعاها وقال لها: «ويحك يا ليلى، لقد حِزتِ بتوبة قدره». فقالت له: «والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت اني مقصرة في نعته، وإني لا أبلغ ما هو أهله». فسألها معاوية: «من أي الرجال كان؟» قالت:

أتته المنايا حين تمَّ تمامه

وأقصر عنه كل قرن يصاوله

كان كليث الغاب يحمي عرينه

وترضى به أشباله وحلائله

غضوب حليم حين يطلب حلمه

وسمٌ زعاق لا تصاب مقاتله

أعجب معاوية بشعرها وأمر لها بجائزة عظيمة.

كان لليلى الاخيلية في كل مناسبة كلمة نافذة ومرموقة، وكان الناس ينتظرون قصائدها ويتندرون بها، سواء في الهجاء أو في المدح او حتى في الغزل... ومن أبرز قصائدها تلك التي أنشدتها في حضرة عبد الملك بن مروان، عندما أتته مناشدة إياه حمايتها من اعرابي جاء يسرق ماءها فقالت:

ستحملني ورحلي ذات رحل

عليها بنت آباء كرام

إذا جعلت سواد الشام جبناً

وغلق دونها باب اللئام

فليس بعائد أبداً اليهم

ذوو الحاجات في غلس الظلام

أعاتك لو رأيتِ غداة بنا

عزاء النفس عنكم واعتزامي...

يروى أن ليلى الاخيلية دخلت مرة الى الحجاج بن يوسف. فرحب بها وقال لها: «ما الذي حملكِ الينا؟» فقالت: «السلام على الامير، والقضاء لحقّه والتعرض لمعروفه». قال: «وكيف خلفتِ قومك؟».

قالت: «تركتهم في حال خصب وأمن ودعة. أما الخصب ففي الاموال والكلأ.

وأما الأمن، فقد أمنهم الله عزّ وجلّ. وأما الدعة، فقد خامرهم من خوفك ما أصلح بينهم». ثم انشدته قصيدة مما قالت فيها:

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما

المنايا بكف الله حيث تراها

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة

تتبّع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها

غلام إذا هزّ القنا سقاها

سقاها دماء المارقين وعلها

إذا جمحت يوماً وضيف أذاها

إذا سمع الحجاج صوت كتيبة

أعدّ لها قبل النزول قراها

أعدّ لها مصقولة فارسية

بأيدي رجال يحسنون غذاها

أحجاج لا تعطِ العصاة مناهم

ولا الله يعطي للعصاة مناها

ولا كل حلاف تقليد بيعة

فأعظم عهد الله ثم شراها

بعدما انتهت ليلى من انشاد القصيدة أقبل الحجاج على جلسائه وقال لهم: «أتدرون من هذه»؟ قالوا: «لا والله ما رأينا إمرأة أفصح ولا أبلغ ولا أحسن إنشاداً». فقال لهم: «هذه ليلى صاحبة توبة».

بلغ من أمر ليلى الاخيلية الى درجة أن الناس اختلفوا في ما بينهم حول أيهما أشعر الخنساء أم ليلى. يروي أبو مسلم عبد الله بن مسلم عن أبيه فيقول: «كنت في مجلس ضمّ أشرافاً من قريش. فتذاكروا الخنساء وليلى الاخيلية. ثم أجمعوا على أن ليلى الاخيلية أفصحهما، فشهدوا للأخيلية بالفصاحة. وقال أبو زيد: «ليلى اكثر تصرفاً، واغزر بحراً وأقوى لفظاً والخنساء أذهب عمودا «في الثراء».

بقيت ليلى طوال حياتها حاملة حبّ توبة في قلبها. يروى أنها مرت مرة، وهي في هودج لها، بقبر توبة ومعها زوجها، فقالت: «والله لا أبرح حتى أسلّم على توبة». فمنعها زوجها من ذلك، الا أنها أبت الا أن تلمَّ به. فصعدت على اكمة عليها قبر توبة وقالت: «السلام عليك يا توبة». ثم حوّلت وجهها الى القوم وقالت: «ما عرفت له كذبة قط قبل هذا. فقالوا: وكيف؟ قالت: «أليس هو القائل:

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت

عليَّ ودوني تربة وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقى

اليها صدى من جانب القبر صائح

فما باله لم يسلّم علي كما قال. وكانت الى جانب القبر بومة كامنة، فلما رأت الهودج واضطرابه، فزعت وطارت في وجه الجمل، فنفر، فرمى بليلى على رأسها، وماتت في الحال. ودفنت الى جانب توبة.

وعلى رغم رحيلها، بقيت ليلى الاخيلية طوال الاجيال المتعاقبة رمزاً للوفاء في الحب، وللإبداع في الكلمة. فخلدت قصائدها ورجعت صداها العصور...

المراجع

١ ـ الموجز في الادب العربي وتاريخه. تاليف حنا الفاخوري. الجزء الاول. منشورات دار الجيل.

٢ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تاليف عمر رضا كحاله. الجزء الرابع. منشورات مؤسسة الرسالة.

٣ ـ العقد الفريد. تاليف شهاب الدين أحمد المعروف بإبن عبد ربه الاندلسي. الاجزاء الاول والثالث والسادس. منشورات مكتبة الهلال.

متيّم الهشامية

«متيَّم الهشامية» مغنية من المغنيات المجيدات في العصر العباسي، وشاعرة عارفة بالأدب، أحسنت صناعة الكلمة وساهمت في تشييد صرح الفكر الذي بلغ في العصر العباسي شأوا كبيرا، فكان لها الأثر الفعال في نفوس المعاصرين وفي العصور التالية.

كانت متيّم مولّدة من مولدات البصرة، نشأت فيها وتأدبت وأخذت الغناء عن إبراهيم الموصلي، وتعمقت في هذا الفن على «بذل»، وسرعان ما أصبحت من أحسن الناس وجها وغناء وأدبا.

إشتراها علي بن هشام بعشرين الف درهم، فحظيت عنده حظوة عظيمة وتقدمت على جواريه، نظراً لما كانت تتمتع به من قوة حضور وشفافية في الشخصية وسرعان ما أختارها ان تكون أم أولاده. فولدت له «صفية» التي كنيت بأم العباس، ثم محمدا وعرف بأبي عبد الله ثم هارون وعرف بأبي جعفر، ويقال إن المأمون سماه وكناه لما ولد تيمنا بذكرى والده. ولما توفي علي بن هشام عتقت.

كان المأمون يبعث اليها فتجيئه وتغنيه. ولما خرج المعتصم الى سرّ من رأى، أرسل اليها وأنزلها داخل الجوسق في دار كانت تسمى «الدمشقي». وكانت تستأذن المعتصم في الدخول الى بغداد لزيارة أولادها، ثم ترجع. قال الحسن بن إبراهيم بن رباح: «سألت عبد الله بن العباس الربيعي من أحسن من أدركت صنعة؟ قال: إسحاق. قلت: ثم من؟ قال: علوية. ثم من؟ قال: متيم. قلت: ثم من؟ قال: ثم أنا. فعجبت من تقديمه متيم على نفسه، فقال: الحق احق أن يتبع».

لقيت متيّم عند المعتصم، كل التقدير والإحترام والعناية بموهبتها، فأعطت

شعرا ولحنا من أجمل ما قيل بشهادة «الكبار» في هذا المجال، ونافست اكثرهم إجادة.

ويروى أن متيَّم كانت جالسة يوما في حضرة المعتصم في بغداد وإبراهيم بن المهدي، وغنت..

لزينب طيف تعتريني طوارفه

هدوا إذا ما النجم لاحت لواحقه

فأشار اليها إبراهيم أن تعيده.

فقالت متيَّم للمعتصم: «إن إبراهيم يستعيدني الصوت وأظنه يريد أن يأخذه» فقال لها: «لا تعيديه».

بعد ايام، كان إبراهيم حاضرا في مجلس المعتصم ومتيّم غائبة عنه، ولما إنصرف، مرّ بدار متيّم، وكانت جالسة في منظرة لها مشرفة على الطريق، تغني الشعر نفسه الذي غنته في حضرة المعتصم، فلبث يستمع الى أن حفظ الشعر واللحن، عندها طرق باب المنظرة بمقرعته وقال لها: «قد أخذناه بلا حمدك».

عندما قتل علي بن هشام جاء النوائح، ورثوه ببعض من نوح متيّم وكان جيدا، فإستحسنه الشعراء، ولم يرضوا عنه بديلا طول مراسم التشييع، وإذا بمتيّم تقفز الى الواجهة في الإجادة والخلق، وتترسخ موهبتها كعلم في المصائب، تماما كما في أوقات الفرح.

تغنى الشعراء بمتيّم الشاعرة والمغنية، وأجمعوا على ان لم يكن من المغنين أحسن صنعة من علوية وعبد الله بن العباس ومتيّم. كما تغنوا بمتيّم الإنسانة ذات القيم والمبادىء، المؤمنة بالوفاء والصداقة. يروي الهشامي في هذا المجال قائلا: «كانت متيّم تحبني حبا شديدا يتجاوز محبة الأخت لأخيها، وكانت تعلم أني أحب النبق، فكانت لا تزال تبعث إلي منه. إني لأذكر في ليلة من الليالي في وقت السحر، اذا أنا ببابي يدق. فقيل: من هذا؟ فقالوا: خادم متيم يريد ان يدخل الى أبي عبد الله.

فقلت: يدخل. فدخل ومعه الي صينية فيها نبق، فقال لي: تقرئك السلام وتقول لك: كن عند امير المؤمنين المعتصم بالله، فجاؤوه بنبق من أحسن ما يكون. فقلت له: أطلب من أمير المؤمنين شيئاً؟ فقال لي: تطلبين ما شئت. قالت: يطعمني أمير المؤمنين من هذا النبق. فقال لسمانة (الخادم): اجعل من هذا النبق في صينية وإجعلوها قدام متيّم، فأخذته وبعثت به اليك معي. ثم دفعت إلي دراهم وقالت: «هب للحراس هذه الدراهم لكي يفتحوا الدروب لك حتى تصير به اليه».

وعن جودتها في الغناء يروي الهشامي:

«بعث علي بن هشام الى إسحاق، فجاء فأخرج متيّم جاريته اليه. فغنت بين يديه:

فلا زلن حسرى ظلعا لم حملنها

الى بلد ناء قليل الاصادق

فاستعاده اسحق وإستحسنه، ثم قال له: بكم تشتري مني هذا الصوت؟ فقال له علي بن هشام: جاريتي تصنع هذا الصوت وأشتريه منك! قال: قد أخذته الساعة وأدعيه، فقول من يصدق، قولي أو قولك».

كان إسحاق متحاملا على المغنين مسرفا في الحط من قدراتهم، ولم يأت في كتابه على ذكر احدهم الا متيّم. ذلك انه لم يستطع تجاهل ما تركت في نفسه من أثر.

أما أجمل الشعر وأرقه، فقالته متيم يوم وقفت امام قصر علي بن هشام بعد مقتله وقد أغلق بابه وعلاه التراب والغبار وطرحت في أفنيته المزابل:

يا منزلا لم تبل اطلاله

حاشا لاطلالك ان تبلى

لم أبك اطلالك لكنني

بكيت عيشي فيك إذ ولى

قد كان لي فيك هوى مرة

غيبه التراب وما ملا

فصرت أبكي جاهدا فقده

عند إذكاري حيثما حلا

فالعيش أولى ما بكاه الفتى

لا بد للمحزون ان يسلى

ثم بكت حتى سقطت من قامتها وجعل النسوة يناشدنها ويقلن: الله الله في نفسك، فإنك تؤخذين الآن.

وأبدعت متيَّم في حضرة المعتصم وأجادت أروع أنواع الشعر والغناء.

يروى ان المعتصم بعث مرة الى متيم، فذهبت اليه، وكان عائدا لتوه من بغداد، فامرها بالغناء، فغنت له:

هل مسعدٌ لبكاء

بعبرة أو دماء

فطلب منها أن تعدل عن هذا البيت الى غيره. فغنته غيره من معناه. فتأثر ودمعت عيناه، وطلب منها أن تغنيه غيره. فغنّت من لحنها:

أولئك قومي بعد عزّ ومنعة

تفانوا والا تذرف العين اكمد

فبكى وقال لها: ويحك لا تغنين في هذا المعنى شيئا البتة. فغنت في لحنها:

لا تأمن الموت في حلٍّ وفي حرم

ان المنايا تغشى كل انسان

وإسلك طريقك هونا غير مكترث

فسوف يأتيك ما يمني لك الماني

فقال: «والله لولا اني اعلم انك انما غنيت بما في قلبك لصاحبك وانك لم تريديني لمثلت بك، ولكن خذوا بيدها فاخرجوها».

عن متيّم، أخبر الهشامي وأجاد في الحديث عن مآثرها. ومما روى: «دخلت علينا مرة متيم، وأمرت بعود وجلست تغني لنفسها:

كيف الثواء بأرض لا أراك بها

يا اكثر الناس عندي منه ويدا

فما رأيت أحدا من المغنين والمغنيات إذا غنوا لأنفسهم يكادون يغنون الا خفيف رمل». كانت متيّم موضع إعجاب كل من تعرف الى شخصيتها الفذة. احبها الشعراء، وحرص اصدقاؤها على الاحتفاظ بصداقتها نظرا لغناها الفكري والأدبي والأخلاقي. ويروى في هذا المجال، أن متيّم إحتجمت مرة عن أحد مجالس المأمون، فبعثت اليها مؤنسة جارية المأمون قلادة في وسطها حبة لها قيمة جليلة كبيرة وعن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وبينها الذهب الخالص، وتفوح منها اغلى أنواع الطيب. وذلك لإرضائها، والتأكيد على أهميتها الكبيرة في نفوس جميع الذين يرتادون المجلس ويتذوقون الإبداع.

الى جانب الغناء والشعر، نجحت متيّم في جمع انواع الطيب، وكان يعجبها البنفسج جدا، وتملك القوارير من كل ريحان وطيب، حتى أنها من شدة إعجابها به، لا يكاد يخلو من كمها الريحان، وكان يبدو دائما كما قطف من البستان.

توفيت متيّم عام ٢٢٤ هـ. (٨٣٨م) واخبر ابو جعفر بن الدهانقة ان جارية للمعتصم قالت لما ماتت متيّم وإبراهيم بن المهدي وبذل: يا سيدي أظن أن في الجنة عرسا، فطلبوا هؤلاء اليه» فنهاها المعتصم عن هذا القول وأنكره. فلما كان بعد أيام، وقع حريق في حجرة هذه الجارية، فاحترق كل ما تملك، وسمع المعتصم الجلبة

فقال:

«ما هذا؟» فأخبر عنه، فدعا بها فقال: «ما قصتك؟» فبكت وقالت: «يا سيدي، إحترق كل ما أملك». فقال: «لا تجزعي، فإن هذا لم يحترق وإنما إستعاره أصحاب ذلك العرس».

المراجع

١ ـ الاعلام، قاموس تراجم، لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. منشورات دار العلم للملايين.

٢ ـ كتاب الاغاني تأليف أبي الفرج الاصبهاني. المجلد السابع. دار إحياء التراث العربي.

٣ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الخامس. منشورات مؤسسة الرسالة.

محبوبة

تجمع الدراسات الأدبية على ان أول الجواري اللآتي برزن على حلبة الشعر، كن الفارسيات.

فأتين بشعر رقيق، صافي الديباجة، لطيف المعاني، ونقشنه على ثيابهن وحليهن وعصائب رؤوسهن. فتفوقت منهن كثيرات، وحظين بمكانة أدبية مرموقة. وتصدرت محبوبة الى جانب عنان ودنانير وعريب وفضل الحياة الأدبية في العصر العباسي، وكانت مجلية شعراً وموسيقى وغناء ولحناً.

مولدة من مولدات البصرة، كانت محبوبة لرجل من اهل الطائف، أدبها وعلمها، واهديت الى المتوكل العباسي عندما ولي الخلافة.

كانت محبوبة أجمل من فضل وجها وأشبه بها في رقة طبعها وعذوبة لفظها وحضور خاطرها وقوة إرتجالها. أعجب بها المتوكل وجعل لها في قصره وفي نفسه مكانة مرموقة. وسرعان ما إشتهرت بأخبارها في مجالسه.

من مآثرها التي تبرهن قوة شخصيتها، وحسن بيانها، ان «قبيحة» جارية المتوكل حفرت على خدها «جعفر» وهو إسم المتوكل، فأعجبه هذا الامر وطلب الى علي بن الجهم ان يقول في ذلك شعراً، وكانت محبوبة حاضرة. فلم تدع لإبن الجهم الوقت للتفكير واندفعت على الفور الى القول:

«وكاتبة بالمسك في الخد جعفرا

بنفسي محط المسك من حيث اثرا

لئن كتبت في الخد سطراً بكفها

لقد أودعت قلبي من الحب اسطرا

فيا مـن لمـلوك لملك يمينـه

مطيع له فيما أسر وأظهرا

ويا من هواها في السريرة جعفر

سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا».

دهش علي بن الجهم وبقي واجما لا ينطق بحرف، كذلك فعل علي بن يحيى المنجم احد شعراء المتوكل. وإزاء ردة فعل الشاعرين المستغربة، لم يخف المتوكل إعجابه بسرعة بديهتها وباجادتها صنع الشعر، فأمر بارسال القصيدة الى عريب، فلحنت الشعر وغنته المغنيات.

وفي مجلس آخر، أهدى اليها المتوكل تفاحة مغلفة، فقبلتها وانصرفت عن مجلسه الذي كان يضم مجموعة من الشعراء من بينهم علي بن الجهم، الى المكان الذي كانت تجلس فيه. ثم خرجت جارية لها ومعها رقعة، فدفعتها الى المتوكل، فقرأها وضحك ضحكاً شديداً وإذا فيها:

«يا طيب تفاحة خلوت بها

تشعل نار الهوى على كبدي

أبكي اليها واشتكي دنفي

وما الاقي في شدة الكمد

لو إن تفاحة بكت لبكت

من رحمتي هذه التي بيدي

إن كنت لا ترحمين ما لقيت

نفسي من الجهد فارحمي جسدي».

لم يبق احد في المجلس الا إستظرفها وإستملحها.

احب المتوكل محبوبة. وقدرها وجعل لها دورا بارزا في الحياة الأدبية وكانت مجالسه لا تنعقد الا بحضورها وبمشاركتها. وغالبا ما كانت تدفع الشعراء الى التباري في النظم، فيتحول المجلس الى سوق عكاظ وتنقضي الساعات الطوال من دون ان يتعب احد الشعراء، إذ كانت محبوبة المحرك والمحرض على النظم وعلى المنافسة.

يروى ان المتوكل غضب مرة من محبوبة، فهجرها ومنع جواريه من مخاطبتها. الا ان الحنين سرعان ما عاوده اليها لكن عزة نفسه منعته من المبادرة الى مصالحتها، خشية ان تكتشف عظمة مكانتها في نفسه.

روى علي بن الجهم: «بكرت اليه يوما فقال لي: رأيت البارحة محبوبة في نومي وكأني صالحتها. فقلت: أقر الله عينك يا أمير المؤمنين، وأنامك على خير وأيقظك على سرور، وأرجو ان يكون هذا الصلح في اليقظة، فبينا هو يحدثني وأجيبه، إذا بوصيفة جاءته وأسرّت اليه شيئا فقال لي: «أتدري ما أسرّت هذه اليّ؟ قلت: لا، قال: حدثتني انها إجتازت بمحبوبة الساعة وهي في حجرتها تغني افلا تعجب من هذا؟ إني مغاضبها، وهي متهاونة بذلك، لا تبدؤني بصلح، ثم لا ترضى حتى تغني في حجرتها، قم بنا يا علي حتى نسمع ما تغني ثم قام، وتبعته فإذا هي تغني وتقول:

«أدور في القصر، لا أرى أحداً أشكو اليه، ولا يكلمني كأنني قد أتيت معصية، ليس لها توبة تخلصني فهل شفيع لنا الى ملك قد زارني في الكرى وصالحني حتى إذا ما الصباح لاح لنا عاد الى هجره وصارمني».

طرب المتوكل، وأحسّت محبوبة بوجوده، فجثت على رجليه. فقال: «ما هذا؟ قالت: يا مولاي! رأيت في منامي هذه الليلة كأنك رضيت عني.

فأنشدتُ ما سمعت. قال: وأنا والله رأيت مثل ذلك يا علي! هل رأيت أعجب من هذا الإتفاق؟» على أثر مقتل المتوكل، صارت محبوبة وجواريها الى وصيف، أحد المماليك الذي جلبهم المعتصم، ثم غفل عنهم الزمان فأصبح لهم في هذه الدولة ملك وسلطان، ولما انتهين اليه، جلس وأحضرهن عليهن الثياب المذهبة والجواهر الوضاءة، وقد تصنعن وتطيبن، الا محبوبة. فجاءت مرهاء متسلبة (أي لابسة لباس الحداد وتاركة عينيها من دون كحل) حزناً على المتوكل. فغنت الجواري جميعا. ثم قال: يا محبوبة أنشدينا أغنية. فأخذت العود وغنت وهي تبكي وتقول:

«أي عيش يطيب لي

لا أرى فيه جعفرا

ملكاً قد رأته عيني

قتيلاً معفرا

كل من كان ذا هيا

م وحزن فقد برا

غير محبوبة التي

لو ترى الموت يشترى

لاشترته بملكها

كل هذا لتقبرا

إن موت الكئيب

اصلح من أن يعمرا».

فإشتد ذلك وصيف، وهمّ بقتلها. وكان بغا حاضرا وهو شريكه في التغلب على الملك والعبث بالخلافة فاستوهبها منه، فوهبها له، فأعتقها وأمر بإخراجها من

سمراء، فخرجت الى بغداد، فإنزوت وإحتجزت نفسها عن لقاء الناس حتى توفيت حوالى العام ٨٦١م.

تعتبر حياة محبوبة صورة عن الحياة الناعمة والحضارة الباسمة والعيش الرغيد. وكانت بيوت الخلفاء القدوة في كل ذلك ومسار الامثال. وأول من بذل من نفسه، ورأيه وجلال منصبه لهؤلاء الجواري الخليفة الثالث محمد المهدي إبن أبي جعفر المنصور.

في بداية خلافته أراد الاحتجاب عن الناس. فلم يطق البقاء على ذلك الا قرابة سنة، ثم انكشف للندماء، فأشار عليه عبد الملك بن يزيد قائده وصاحبه ان يحتجب عنهم. فقال: اليك عني يا جاهل! إنما اللذة في مشاهدة السرور وفي الدنو ممن سرّني، فأما من وراء فما خيرها ولذتها؟ ولو لم يكن في الظهور بين الندماء والإخوان الا اني اعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطوني من فوائدهم لجعلت لهم في ذلك حظاً موفوراً.

غلب على المهدي شغفه بالجواري. فكان لا يطيق عن محادثتهن ومجالستهن وكان وزيره يعقوب بن داود يستثمر تلك العاطفة لنفسه فكان إذا غضب عليه تقرب اليه بذكر الجواري وأخذ يحدثه عنهن فيرضى عنه.

وعلى غرار المهدي، سار الخلفاء فساهموا في خلق تراث أدبي عريق مزج التيارات الثقافية المختلفة وصهرها في بوتقة واحدة وجعل لها هوية، بقيت لفترة طويلة من اهم المحطات الادبية واكثرها إبداعاً وخلقاً.

المراجع

١ ـ النساء العربيات تأليف كرم البستاني. منشورات دار صادر. دار بيروت ١٩٦٤.

٢ ـ كتاب الاغاني. تأليف ابي الفرج الاصبهاني المجلد الثاني والعشرون. دار إحياء التراث العربي.

٣ ـ الاعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. تأليف خير الدين الزركلي. المجلد الخامس. دار العلم للملايين.

٤ ـ اعلام النساء في عالمي العربي والإسلام. تأليف عمر رضا كحاله. المجلد الخامس. منشورات مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

نائلة بنت الفرافصة

وسط احداث متدافعة واجواء سياسية معقدة برزت المرأة صاحبة دور رائد ورأي سديد، وصوت مسموع، وبطش شديد. وشكلت نائلة بنت الفرافصة نموذج المرأة العربية التي عرفت كيف تتكيف مع الحرب ومع السياسة، وتلعب دورا رائدا ومميزا في كل منهما، رفع من شأن المرأة المسلمة وجعلها تحتل مركز الصدارة الى جانب الرجل، سواء في الفصاحة او البلاغة او في القتال.

اعتبرت نائلة بنت الفرافصة بنت الاحوص بن عمرو من ربات الرأي والعقل والفصاحة والبلاغة والجمال والكمال. تزوجها عثمان بن عفان من دون ان يراها او حتى يتعرف اليها. وتفاصيل ذلك، ان سعيد بن العاص تزوج هند بنت الفرافصة بن الاحوص الكليبية. فبلغ ذلك عثمان بن عفان فكتب الى سعيد: «اما بعد فقد بلغني انك تزوجت امرأة من كلب فاكتب الي بنسبها وجمالها». فكتب اليه سعيد: «اما نسبها فهي ابنة الفرافصة بن الاحوص. واما جمالها فبيضاء مديدة والسلام».

رد عليه عثمان: «إن كانت لها اخت فزوجنيها».

فبعث سعيد الى أبيها، فخطب اليه احدى بناته على عثمان. وكانت نائلة ولما أراد شقيقها حملها الى زوجها، قال لها والدها: إنك تقدمين على نساء من نساء قريش هن اقدر على الطيب منك فاحفظي عني خصلتين تكحلي، تطيبي بالماء، حتى يكون ريحك ريح شن اصابه مطر».

وفي اثناء طريقها، كرهت الغربة، وحزنت لفراق اهلها وقالت:

الست ترى يا ضب بالله أنني

مصاحبة نحو المدينة أركبا

اذا قطعوا حزنا تحت ركابهم

كما زعزعت ريح يراعا مثقبا

لقد كان في ابناء حصن بن ضمضم

لك الويل ما يغني الخباء المطنبا

ولما قدمت الى عثمان، اعجب بجمالها وبفصاحة كلامها، وسرعان ما تحولت الى أحظى نسائه، نظرا لما امتازت من الطاعة له والاخلاص والوفاء.

من اخلاصها وسداد رأيها، ان عثمان بن عفان خطب الخطبة التي أعطى الناس فيها من روحه التوبة. فرق هؤلاء له، وبكى الكثير منهم يومذاك. ثم لما نزع، وجد في منزله مروان وسعيدا ونفرا من بني امية لم يكونوا شهدوا الخطبة.

ولما جلس قال مروان: «يا أمير المؤمنين أتكلم أم أصمت؟»

فقالت نائلة بنت الفرافصة: «لا بل أصمت. فانهم والله قاتلوه ومؤثموه. انه قد قال مقالة لا ينبغي له ان ينزع عنها».

فأقبل عليها وقال لها: ما أنت وذاك؟ «فوالله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ».

فقالت له: «مهلا يا مروان عن ذكر الآباء تخبر عن أبي وهو غائب، تكذب عليه، وإن أباك لا يستطيع ان يدفع عنه. أما والله لولا ان عمه وانه يناله غمه اخبرتك عنه ما لن اكذب عليه».

فأعرض عنها مروان ثم كلم عثمان كلاما أثار فيه الفتنة من جديد. وجاء علي غاضباً فدخل على عثمان وقال: «أما رضيت من مروان ولا رضي منك الا بتحريفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به والله. ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه. وأيم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك...»

ولما خرج علي، دخلت عليه نائلة وقالت: «أتكلم أم أصمت؟» فقال: «تكلمي». فقالت: قد سمعت قول علي لك وإنه ليس يعاودك، وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء. قال: «فما أصنع؟» قالت: «تتقي الله وحده لا شريك له وتتبع سنة صاحبيك من قبلك، فانك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة. وانما تركك الناس لمكان مروان. فأرسل الى علي فاستصلحه، فإن له قرابة منك وهو لا يعصى. فأرسل عثمان الى علي. فأبى أن يأتيه. وقال: «قد أعلمته أني لست بعائد».

وبلغ مروان مقالة نائلة فيه، فجاء الى عثمان، فجلس بين يديه. فقال: أتكلم أم أصمت؟ فقال: تكلم . فقال إن بنت الفرافصة. فقال عثمان: «لا تذكرنها بحرف فأسوء لك وجهك. فهي والله أنصح لي منك». فكف مروان. من شدة وفائها لعثمان عرضت نفسها للقتل عندما دخل الناس الى دار عثمان شاهرين السيوف بغية قتله. ولما رأت نائلة ذلك منهم نشرت شعرها، فقال لها عثمان: «خذي خمارك فلعمري لدخولهم علي أعظم من حرمة شعرك». ثم هوى رجل على عثمان بالسيف. فانكبت عليه وأتقت السيف بيدها فقطع أناملها. فقالت: «يا رباح، (غلام لعثمان بن عفان) وكان معه سيف، أعن عني هذا». فضربه رباح، فقتله. ثم دخل آخر ومعه سيف وطعن به بطن عثمان فقتله. فخرجت نائلة وهي تصيح، وخرج القوم هاربين من حيث دخلوا ثم صعدت نائلة الى الناس فقالت: «إن أمير المؤمنين قد قتل».

أرسلت نائلة الى حويطب بن عبد العزى وجبير بن مطعم وأبى جهم بن حذيفة وحكيم بن حزام وغيرهم ليجهزوا عثمان. فقالوا لها: «اننا لا نقدر ان نخرج به نهارا وهؤلاء المصريون على الباب». فأمهلوا حتى كان بين المغرب والعشاء. فدخل القوم، فحيل بينهم وبينه. فقال ابو جهم: والله لا يحول بيني وبينه احد الا مت دونه». فحملوه وتبعتهم نائلة وغلام لعثمان. وانتهوا الى حائط يحيط به النخل. فدقوا الجدار، ثم دفنوه وصلى عليه جبير بن مطعم. وقالت نائلة ترثي عثمان:

«الا ان خير الناس بعد ثلاثة

قتيل النجيبي الذي جاء من مصر

وما لي لا أبكي وتبكي قرابتي

وقد غيبت عنا فضول أبي عمرو»

انتقلت نائلة برفقة نسوة من قومها الى مسجد رسول الله، ووجهت خطابا الى الجموع المحتشدة قائلة: «عثمان ذو النورين قتل مظلوما بينكم بعد الاعتذار، وإن أعطاكم العتبى معاشر المؤمنة وأهل الملة، لا تستنكروا مقامي ولا تستكثروا كلامي، فإني تذوقت ثكلا من عثمان بن عفان ثالث الاركان من اصحاب رسول الله... يا هؤلاء إنكم في فتنة عمياء صماء طباق السماء ممتدة الحيران شوهاء العيان في لبس من الامر، قد توزع كل ذي حق حقه ويئس من كل خبر أهله، فلهوات الشر فاغرة وآيات السوء كاشرة، وعيون الباطل خزر وأهله شزر. ولئن نكرتم امر عثمان وبشعتم الدعة لتنكرن غير ذلك من غيره حين لا ينفعكم عتاب ولا يسمع منكم استعتاب. ثم أقبلت بوجهها على قبر النبي وقالت: اللهم إشهد.

«أيا قبر النبي وصاحبيه

عذيري إن شكوت ضياع ثوبي

فإني لا سبيل فتنفعوني

ولا أيديكم في منع حوبي

ثم إنصرفت باكية مسترجعة، وتفرق الناس مع انصرافها. ارادت نائلة ان تنتقم. فلم تجد امامها الا «علي». فهو امير الناس بعد زوجها. كذلك، لم تجد الا رجال الشام، وجند الشام وأمير الشام، لكي تثير ثائرتهم وتضرم نار الثأر فيهم.

أرسلت نائلة الى معاوية بأصابعها الممزقة، وقميص عثمان المخضب وأوحت اليه ان يعلق كل ذلك في المسجد الجامع في دمشق، وأن يقرأ على المجتمعين الكتاب الآتي:

«من نائلة بنت الفرافصة الى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد فإني أدعوكم الى الله الذي أنعم عليكم. وعلمكم السلام، وهداكم من الضلالة، وأنقذكم من الكفر،

ونصركم على العدو، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وانشدكم الله، وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم، فإنه قال: «وإن طائفتان من المؤمنين إقتتلوا فاصلحوا بينهما. فإن بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله». فإن أمير المؤمنين بغي عليه، ولو لم يكن لعثمان عليكم الا حق الولاية، ثم أتى اليه ما أتى لحق على كل مسلم يرجو أيام الله أن ينصره لقدمه في الاسلام وحسن بلائه، وأنه أجاب داعي الله وصدق رسول الله والله أعلم به إذا إنتخبه فاعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة. وإني أقص عليكم خبره لاني كنت مشاهدة أمره كله حتى قضى الله عليه. إن أهل المدينة حصروه في داره يحرسونه ليلهم ونهارهم قياما على ابوابه بسلاحهم يمنعونه كل شيء قدروا عليه حتى منعوه الماء. فمكث هو ومن معه خمسين ليلة، وأهل مصر قد أسندوا أمرهم الى علي، ومحمد بن أبي بكر، وعمار بن ياسر، وطلحة والزبير، فأمروهم بقتله! وكان معهم من القبائل خزاعة، وسعد بن بكر، وهذيل، وطوائف من جهينة، ومزينة، وأنباط يثرب، فهؤلاء كانوا أشد الناس عليهم. ثم إنه حصر، فرشق بالنبل والحجارة، فخرج ممن كان في الدار ثلاثة نفر معه. فأتاه الناس يصرخون اليه، فيأذن لهم في القتال، فنهاهم وأمرهم ان يردوا اليهم نبلهم، فردوها عليهم، فما زادهم ذلك في القتل الا جراة، وفي الامر إلا إعراقا. فأحرقوا باب الدار.

ثم جاء نفر من أصحابه، فقالوا إن ناسا يريدون أن يأخذوا من الناس بالعدل، فاخرج الى المسجد يأتوك. فإنطلق، فجلس فيه ساعة، وأسلحة القوم مسلطة عليه من كل ناحية. فقال: ما أرى اليوم احدا يعدل! فدخل الدار. وكان معه نفر ليس على عامتهم سلاح، فلبس درعه، وقال لاصحابه: لولا انتم، ما لبست اليوم درعي. فوثب عليه القوم. فكلمهم ابن الزبير، وأخذ عليهم ميثاقا في صحيفة بعث بها الى عثمان: عليكم عهد الله وميثاقه الا تقربوه بسوء حتى تكلموه وتخرجوا. فوضع السلاح. ودخل عليه القوم يقدمهم محمد بن أبي بكر، فأخذ بلحيته، ودعوه باللقب، فقال: أنا عبد الله وخليفته، فضربوه على رأسه ثلاث ضربات وطعنوه في صدره ثلاث طعنات، وضربوه على مقدم الجبين فوق الانف ضربة أسرعت في العظم، فسقطت

عليه وقد اثخنوه وبه حياة. وهم يريدون قطع رأسه ليذهبوا به. فأتتني بنت شبيبة بن ربيعة، فألقت نفسها معي عليه، فتوطأنا وطأ شديدا وعرينا من ثيابنا، وحرمة أمير المؤمنين أعظم فقتلوه رحمة الله عليه في بيته وعلى فراشه. وقد أرسلت اليكم بثوبه وعليه دمه. وإنه والله لئن كان أثم من قتله لما أسلم من خذله. فأنظروا وأين أنتم من الله جل وعز. فإنا نشكي ما مسنا اليه نستنصر وليه وصالح عباده ورحمة الله على عثمان، ولعن الله من قتله وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والمذلة وشفى منهم الصدور.

وكان معاوية وهو يقرأ الخطاب، يضع القميص على المنبر والى جانبه اصابع نائلة. فأثار هذا المشهد ثائرة الجماهير المحتشدة التي قدرت بخمسين الف شيخ من شيوخ الشام، وراحوا يصيحون ويعجون بالبكاء تحت قميص عثمان واصابع نائلة. كذلك اذكى كتاب نائلة، نظرا لبلاغته وقوة كلمته، الثأر في نفوسهم، فاقسموا ان يقتلوا قتلته أو تذهب ارواحهم.

أعجب معاوية بنائلة اعجابا شديدا. وبعد فترة على مقتل عثمان، أرسل اليها طالبا الزواج منها. فأجابته بالرفض القاطع وقالت:

«أبى الله الا ان تكون غريبة

بيثرب لا تلقين اما ولا ابا»

إشتهرت نائلة بجمال ثغرها. وبعد وفاة عثمان، أخذت فأسا ودقت به اسنانها، فسال الدم على صدرها، على مرأى من جواريها اللواتي دهشن لفعلتها، ولاعتمادها تشويه وجهها بصورة بشعة فقلن لها: «ما صنعت بنفسك؟» قالت: «إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب. وأني خفت ان يبلى حزني على عثمان فيطلع مني رجل على ما أطلع عثمان وذلك ما لا يكون أبدا».

حياة نائلة بنت الفرافصة، وما رافقها من احداث بالغة الخطورة في تاريخ الخلافة، كانت امثولة في البطولة وفي قدرة المرأة على تخطي الصعاب مهما بلغت

خطورتها بجرأة وحكمة وحق، جعلتها تبرز في ادق المهمات وتثبت في اصعب الظروف، الامر الذي دفعها الى احتلال حيز كبير في التقويم التاريخي للاحداث وفي التقويم البلاغي والادبي والفكري للرأي والكلمة.

المراجع

١ ـ كتاب الاغاني. تأليف أبي الفرج الاصبهاني. المجلد السادس عشر. دار احياء التراث العربي.

٢ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تأليف عمر رضا كحاله. الجزء الخامس. مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة.

٣ ـ المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها. تأليف عبد الله عفيفي. الجزء الثاني. دار الرائد العربي.

نزهون الغرناطية

«غرناطة»، قلب الاندلس النابض بالجمال والشعر والابداع، كانت مركز الادباء وملتقى رجال الفكر. «غرناطة» من اجمل بلاد الاندلس، يشقها نهر يتوزع على ديارها وحماماتها وأسواقها وبساتينها الوارفة الدائمة الاخضرار. ويطل عليها الجبل المسمى «بشلير» الذي لا يزول الثلج عنه شتاء وصيفا، ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد وعلى قمته الازهار الكثيرة، واجناس الشجر الدائمة الاخضرار.

قال الشقندي: «غرناطة دمشق بلاد الاندلس، ومسرح الابصار، ومطمح الانفس، ولم تخل من اشراف اماثل، وعلماء اكابر، وشعراء افاضل... وقد نبغ فيها النساء الشواعر كنزهون الغرناطية وغيرها...»

تعتبر «نزهون بنت القلاعي» شاعرة غرناطة الاولى من دون منازع في القرن الخامس الهجري نافست الشعراء الكبار قوة ورقة وابداعا.

كانت نزهون خفيفة الروح والطبع، حافظة للشعر وللأدب، عارفة بضرب الامثال مع جمال فائق وحسن خُلق.

اشتهرت بحواراتها الشعرية وتحديها لأعيان الاندلس وشعرائها المشاهير، وكان لها شعر رقيق وشفاف، وقاس وهجائي. كانت تواجه شعرهم بالشعر وخطاباتهم بالخطاب. وسرعان ما تفوقت على الوزير ابي بكر بن سعيد، والاعمى المخزومي، وابن قزمان الزجال الشهير.

تناقل اخبارها واشعارها الشعراء والرواة، وتندّر بقصائدها كبار عصرها.

فتحولت الى رمز للإبداع استمر من جيل الى جيل قوي الكلمة راسخ الفكرة، ثابت الشعور.

ذكرها الحجاري في «المسهب» ووصفها بخفة الروح، والطباع النادرة، والحلاوة، وحفظ الشعر، والمعرفة بتصريف الامثال، مع جمال فائق، وحسن رائق». كان الوزير ابو بكر بن سعيد اكثر الناس اعجابا بمحاضراتها، ومذاكراتها، ومراسلاتها. فكتب اليها مرة:

«يا من له الف خلّ

من عاشق وصديق

اراك خلّيت للناس

منزلا في الطريق»

فأجابته على الفور:

«وإن كان لي كم من حبيب فإنما

يقدم اهل الحق حب أبي بكر»

اخبار نزهون، تعدت غرناطة الى بلاد الاندلس بأكملها. وكان كل شاعر يقصد المدينة، لا بد له من زيارة نزهون والمشاركة في مجالسها مدحا او هجاء.

زار غرناطة مرة أبو بكر المخزومي الاعمى المدوري ايام ولاية ابي بكر بن سعيد. فكرمه الحاكم، ودعاه الى مجلسه بهذه الابيات:

«يا ثانياً» للمعري

في حسن نظم ونثر

وفرط ظرف ونبل

وغوص فهم وفكر...»

لبى المخزومي الدعوة، من دون أن يعلم بوجود نزهون وافتتح المجلس بمجموعة من الابيات، واسترسل في قول الشعر وقتا لا بأس به، ونزهون صامته لا تتفوه بكلمة، وبعد طول استماع تنحنحت فانتبه المخزومي وسأل: من؟ قيل له: «نزهون». ففكر ساعة وقال:

«على وجه نزهون من الحسن مسحة

وإن كان قد امسى من الضوء عاريا

قواصد نزهون توارك غيرها

ومن قصد البحر استقل السواقيا»

ثارت حمية نزهون، ولم يعجبها المخزومي بشعره، فأعملت فكرها وقالت:

«إن كان ما قلت حقا

من نقضِ عهدٍ كريم

فصار ذكري ذميما

يعزى الى كل لوم

وصرتُ اقبح شيء

في صورة المخزومي».

واسترسلت نزهون في الهجاء، وتحدّت المخزومي، وحرصت على الوقوف امامه بالمرصاد واسكاته. وكان كلما يطلع ببيت، تطلع عليه بأبيات. ومن أبرز اقوالها:

«جاوبت هجوا بهجو

فقل لُعِنْتَ من اشعر

ان كنت في الخلق انثى

فإن شعري مذكر»

اجابها المخزومي على الفور:

«قل للوضيع مقالا

يتلى لي حين يحشر»

ووصل الامر بهما الى حد كاد يصل الى الحرب الكلامية العنيفة. عندها تدخل ابو بكر بن سعيد، وعمل على التوفيق بينهما وانهاء المجلس عند هذا الحد. ولم يكن امام المخزومي الا الاعتراف بقدرة نزهون وذكائها الحاد وذهنها الوقاد الحاضر ابدا سواء في المدح او في الهجاء. وبدورها اعترفت بموهبة المخزومي الفذة. ولم يكن امامها بعد هذا المجلس الا ان مدت جسور الصداقة معه، وراحت تقرأ عليه ابياتها وتستفيد من خبراته.

حكي ان نزهون كانت تقرأ مرّة على ابي بكر المخزومي في احد مجالسها، فدخل عليهما ابو بكر الكتندي، فقال يخاطب المخزومي:

«لو كنت تبصر من تخاطبه»

فأفحم، واطال الفكر فما وجد شيئا. فقالت نزهون:

«البدر يطلع من أزرّته

والغصن يمرحُ في غلائله»

اعجب بها الكتندي، وراح يقرأها الشعر، وسرعان ما اصبح من رواد مجالسها الدائمين، مستمعا وقارئا للشعر وناقدا وخطيبا...

من اخبار نزهون ايضا وقوفها في وجه الشاعر ابن قزمان وتفوقها عليه بالشعر والكلمة الثاقبة الناقدة. قال ابن سعيد واصفا وصول ابن قزمان الى غرناطة واجتماعه بنزهون القلاعية الادبية. قالت له عقب ارتجال بديع، وكان يلبس غفارة

صفراء على زي الفقهاء: «انك لا تسر الناظرين». فقال لها: «ان لم اسرّ الناظرين، فأنا اسرّ السامعين». واستمرا في الهجاء حتى افحمته فتحوَّل عنها الى الوزير ابي بكر فانشده على اثر وقوعه في بركة ماء، بعدما تفوقت عليه نزهون:

«غرقتني في الماء يا سيدي

كفِّره بالتغريق بالمال»

فما كان من الوزير الا ان اغدق عليه المال والثياب. وقبل ان يترك ابن قزمان غرناطة، زار نزهون وتردد على مجلسها، ودوَّن المبارزات الشعرية بينها وبين الشعراء. وقد وردت كلها في ديوان ازجاله.

الى جانب قصائدها في المدح والهجاء، امتازت نزهون بالظرف، وكثيرا ما كانت تعبر عن نفسها بهذه الطريقة، الامر الذي اكسب شعرها فرادة وقوة، وجعل منها رائدة مدرسة شعرية شاملة فيها من الرقة ما يسرق الشعور، ومن الهجاء ما يثير القلوب ومن الظرف ما يوحي بالراحة والضحك...

شاعرة شاملة، عرفت كيف تعبر عن كل ما يختلج في نفسها من احاسيس متسلحة بالصدق وبالعلم وبالثقة وقوة الحجة، مستلهمة من طبيعة غرناطة الرائعة دفقا من جمال الكلمة وموسيقى التعبير، بحيث ان معظم الشعراء كانوا يقصدونها، ليس فقط لسماع شعرها انما للإستمتاع بطريقة القائها للشعر.

اجادت، واستمرت على مر العصور، وهي لا تزال الى اليوم رائدة من ابرز رائدات الشعر الذي، يحاكي الاحساس ويحركه في كل زمان ومكان... هنا تكمن عظمة الشعر وقوة الشاعرة نزهون الغرناطية.

المراجع

١ ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب. تأليف الشيخ احمد بن محمد المقرّي التلمساني. الاجزاء الاول والثالث والرابع. منشورات دار صادر. بيروت.

٢ ـ نزهة الجلساء في اشعار النساء. تأليف جلال الدين السيوطي. تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. الطبعة الاولى ١٩٥٨. منشورات دار المكشوف ـ بيروت.

٣ ـ المرأة واثرها في الحياة العربية. تأليف عبد الحميد فايد. منشورات دار الكتاب اللبناني.

٢ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. تأليف عمر رضا كحاله. منشورات مؤسسة الرسالة. بيروت. الجزء الخامس الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

ولادة بنت المستكفي

على بقعة مترامية الاطراف من الجانب الغربي من العالم القديم، ارتفعت مملكة مستقلة شيدها العرب بعيدا عن امبراطوريتهم الام، وبقي اسمها «الاندلس» حتى يومنا هذا مقرونا بأبرز معالم الحضارة والثقافة المتمثلة بالعلم والادب والموسيقى وفن العمار ذات الطابع العربي الاصيل.

في هذه المملكة المستقلة بخليفتها الاموي، كانت المرأة تتمتع باحترام كبير ومكانة عالية، ولعبت دورا هاما في العلم والادب والفن، لحقت الرجل ونافسته في أدبه وفنه وعلمه، وفي اقتناء الكتب النادرة المعروضة في اسواق المزاد.

يقول محمد جميل بيهم في كتاب «المرأة في التاريخ والشرائع» «إن حال النساء في التمدن الاندلسي، كانت على الاجمال خيرا منها في الشرق. ذلك ان نضوج المرأة هناك كان مستقلا عن الفرس مما حفظ لنساء الاندلس حرية اوسع ومنزلة ارفع. فكنّ اكثر حظا واختلاطاً في الهيئة الاجتماعية».

إنحصرت ثقافة المرأة الاندلسية بالادب، تاركة الاهتمام العلمي لأساطين العلم والتاريخ والفلسفة من الرجال، الا انها امتازت بأركانها من غير الجواري، خلافا للحال في الشرق. لكن وجه الشبه بين هاتين النهضتين الشرقية والغربية هو ان اوان بلوغها الاوج كان في عهد ضعف الخلفاء في الشرق (بني العباس) وإنحسار دولة العرب الكبرى. واستلام ملوك الطوائف زمام الامر في الغرب. ففي القرن الخامس الهجري، في عهد ملوك الطوائف، عمّت الاندلس انوار المعرفة والعلم والادب من شعر ونثر، وجمع كل ملك في عاصمته اكبر قدر ممكن من الشعراء والادباء النوابغ. وواكب هذا الفيض من الادباء، مجموعة من الأديبات والشاعرات

في كل قرية ومدينة وعاصمة ممن اشتهرن برائع الشعر وبلاغة الادب والتجديد الفني... ولعلّ ابرزهن في تلك الفترة «ولادة» بنت الخليفة المستكفي اميرة الشاعرات التي اشتهرت بندوتها الادبية او صالونها الذي كان ربما الاول من نوعه في اوروبا، قلدته الاديبات الكبيرات في فرنسا من امثال «جورج صاند» كما قال المؤرخ الفرنسي الشهير غوستاف لوبون. تجدر الاشارة الى ان هذه النهضة الادبية والفكرية ترافقت مع تقهقر الخلافة الاموية في الاندلس وانفراد ملوك الطوائف بحكم عواصمهم، اي بتفكك الخلافة وتقسيم البلاد الى ممالك صغيرة، كان من جرائها بعد زمن قصير انحسار حكم العرب عن الاندلس وعودة البلاد الى الاسبان.

تعتبر ولادة بنت الخليفة المستكفي اكبر شاعرات الاندلس واعلاهن مقاما واوسعهن شهرة. عرفت بجمالها وأدبها الرفيع، وشعرها الرائع وذكائها المتوقد وثقافتها الجامعة.

كان والدها المستكفي من ملوك بني امية. لم يمهله الزمن حتى غلب على امره وقتل. إزاء هذا الوضع حوّلت ولادة قصرها في قرطبة الى منتدى ادبي رفيع جمع كل مبدع في ميادين الادب والشعر، من الوزراء والعلماء والقضاة والولاة...

وصفها المؤرخ العالم إبن بسام بقوله: «... كانت من نساء اهل زمانها، واحدة اقرانها. حضور شاهد، وحرارة اوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر. كان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر(...)

من مشاهير زوار «ولادة» ومرتادي ناديها الشاعر والوزير ابن زيدون الذي اشتهر بخفة الروح، وبراعة الحديث، حتى سبق منافسيه واحتلّ المقام الاول في قلب الاميرة الشاعرة التي بادلته شعرا بشعر وأدبا بأدب.

قيل عنها في المغرب: «انها بالغرب كعلية بالشرق. الا ان هذه تزيد بمزية الحسن الفائق. واما الادب والشعر النادر وخفة الروح، فلم تكن تقصّر عنها، وكان لها صنعة في الغناء، وكان لها مجلس يغشاه ادباء قرطبة وظرفاؤها فيمر فيه من

النادر وانشاد الشعر كثير، لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك».

وصف الفتح في القلائد علاقة ولادة وإبن زيدون بالآتي: «إن ابن زيدون كان يكلف بولادة ويهيم ويستضيء بنور محياها في الليل البهيم، وكانت من الادب والظرف وتتميم السمع والطرف بحيث تختلس القلوب والالباب وتعيد الشيب الى اخلاق الشباب فلما حلّ بذلك الغرب وانحلت عقدة صبره بيد الكرب فرّ الى الزهراء ليتوارى في نواحيها ويتسلى برؤية موافيها، فوافاها والربيع قد خلع عليها برده ونشر سوسنه ووردة وأترع جداولها وانطق بلابلها فارتاح ارتياح حميد بوادي القرى وراح بين روض يانع وريح طيبة السرى فتشوق الى لقاء ولادة وحنّ وخاف تلك النوائب والمحن، فكتب اليها يصف فرط قلقه، وضيق امده اليها وكلفه، ويعلمها انه ما سلا عنها... ولا خبا ما في ضلوعه من ملتهب الجمر، ويعاتبها على اغفال تعهده ويصف حسن محضره بها ومشهده:

«إني ذكرتك بالزهراءِ مشتاقا

والافقُ طلقٌ ووجه الارض قد راقا

وللنسيم اعتلال في إصائله

كأنما رقّ لي فاعتلَّ إشفاقا»

وأضاف الفتح في القلائد: «ان ابن زيدون لم يزل يروم دنو ولادة فيعذر ويباح دمه دونها ويهدر لسوء اثره في ملك قرطبة وواليها وقبائح كان ينسبها اليه ويواليها احقدت بني جهور عليه؛ وسددت اسهمهم اليه. فلما يئس من لقياها وحجب عنه محياها، كتب اليها يستديم عهدها ويؤكد ودَّها ويعتذر من فراقها بالخطب الذي غشيه والامتحان الذي غشيه، ويعلمها انه ما سلاها (...) ولا خبا ما في ضلوعه من ملتهب الجمر، وهي قصيدة ضربت في الابداع بسهم وطلعت في كل خاطر ووهم ونزعت منزعا قصر عنه حبيب وابن الجهم وأولها:

بنتم وبنا فما إبتلت جوانحنا

شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا

يقضي علينا الاسى لولا تآسينا»

أذكى حبّ ولادة لإبن زيدون نار الحسد في قلوب منافسيه، فسعوا إلى إفساد العلاقة بينهما. وأشهر هؤلاء الوزير الاديب عامر بن عبدوس الذي ظفر برضى «ولادة». الا ان هذا الرضى لم يدم طويلا، ما لبث ان تحوّل الى نقمة عارمة. ندوة ولادة، كانت ملتقى الوزراء والعلماء والشعراء المعجبين، اجتمعوا على ادب خالص، ونقد صائب، وعلم جليل. وما لبث ان انتقل اكثرهم اجادة واسلسهم شعرا وارقهم دعابة الى مقام الحبيب في قلب صاحبة الندوة، مما احدث منافسة صاخبة نظمت فيها القصائد، وحيكت الدسائس لتفريق المحبين، والظفر بقلب الاميرة الشاعرة. فتحوّل الشعراء من القصائد النابعة من العتاب والبعاد والحنين، الى الرسائل التهكمية، مما لم يتسنّ لأعظم صالون ادبي ان ينتج افضل منه. ولادة شاعرة رقيقة الحس، واسعة الخيال، فياضة الشعور، برزت شاعريتها وتجلت في قصائدها الى إبن زيدون، التي تعد من اهم ابتكارات الشعر الاندلسي.

ولاّدة لم تكن في شعرها تبز الشاعرات الاوائل، بل سبقتها مجموعة من الشاعرات اللاتي انشدن القصائد الرائعة، الا انها كانت الاولى من دون منازع في جرأة الكلمة، وصراحة الشعور ووضوح الكلمة:

ترقّب إذا جُنَّ الظلامُ زيارتي

فإني رأيت الليلَ اكتم للسرّ

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح

وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسرْ»

«صوّر إبن زيدون هذا اللقاء الرائع، بكل ما جاش في قلبه من عاطفة، وما اختزن قلمه من ابداع» هكذا وصف ابن بسام في الذخيرة وأورد ما جاء مثه على لسان إبن زيدون:

«فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عنبره، اقبلت بقدّ كالقضيب (...) واطبقت نرجس المقل على كلٍّ ورد الخجل، فملنا الى روض مدبج وظلّ سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل انهاره ودُرّ الطل منثور وجيب الراح مزرور...»

«ودَّعَ الصبرَ محبٌّ ودّعكْ
ذائع من سره ما إستودعكْ
يقرع السنّ على أن لم يكنْ
زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا
حفظ الله زماناً اطلعك
إن يطلّ بعدك ليلي فلكمْ
بتُّ أشكو قصر الليلِ معك».

تصرف «ولادة» لم يكن جموحا، بل تعبيرا عما وصلت اليه البيئة الاندلسية من تطور اتاح للمرأة ان تتخذ موقعا مغايرا لموقعها في الشرق. فاستطاعت ان تعبر بجرأة محدثة تحولا في المفاهيم الاجتماعية.

حياة «ولادة»، زخرت بالاخبار وبالقصائد التي تناقلها الرواة. واجمع معظم عارفيها انها كانت معجبة بجمالها ودلالها، مشيتها فيها الكبرياء وجلستها تعبير عما يجيش في نفسها من حب لذاتها وفخر بشخصيتها، وثقة في نفسها لا تحد. فكانت عن حق، ظاهرة، اعجبت كبار عصرها، وشكلت شخصيتها مواضيع درس وتحليل لعدد من علماء عصرها والعصور التالية. كعادتها، لم تخف «ولادة» اعجابها بنفسها، فقالت في احدى قصائدها:

«أنا والله أصلح للمعالي
وأمشي مشيتي وأتيه تيها».

في هذا الجو استطاعت ولادة ان تسيطر على عواطفها وتختار تصرفاتها، كي تبقى تلك «الملهمة» التي دغدغت قلوب الشعراء. فكتبوا فيها اجمل القصائد، ولكنها في آن كتبت هي الى ابن زيدون تقول:

«الا هل لنا من بعد هذا التفرق

سبيل، فيشكو كل صب بما لقي

وقد كنت أوقات التزاور في الشتا

أبيتُ على جمر من الشوق محرقِ

فكيفَ وقد أمسيت في حالِ قِطعة

لقد عجّل المقدورُ ما كنت اتقي

تمرُّ الليالي، لا أرى البين ينقضي

ولا الصبرَ من رق الشوق معتقي

سقى الله أرضاً قد غدت لكَ منزلاً

بكل سكوبٍ هاطلِ الوبلِ مغدقِ»

وفي قصيدة ثانية تعاتبه باجمل الكلام:

«أحبّتنا إنّي بَلغت مُؤملي

وساعدني دهري، وواصلني حبّي

وجاء يهنيني البشيرُ بوصلِهِ

فأعطيته نفسي وزدت له قلبي»

فتحمّس وطلب منها معاودة غناء هذا المقطع، فتحركت غيرتها وقالت معاتبة ومدافعة عن جمالها وكبريائها:

لو كنتَ تنصِفُ في الهوى ما بيننا

لم تهوَ جاريتي ولم تتجبّر

وتركت غصْنا مثمرا بجماله

وجنحت للغصن الذي لم يثمر

ولقد علمت بأنني بدرُ السما

لكن دُهيت لشقوتي بالمشتري».

وفي قصيدة عتاب تقول:

«أنّـى أضَيِّعُ عهدك

أم كيف أخلفُ وعدك

وقد رأتكَ الاماني

رضي فلم تتعدّك

يا ليت مالكَ عندي

من الهوى لي عندك

فطال ليلك بعدي

كطول ليلي بعدك

سلني حياتي اهبها

فلست املك ردّك

الدهر عبدي لما

اصبحت في الحب عبدك»

«ولادة» المختالة بنفسها، تبدو في هذه القصيدة امرأة يعذبها الحنين ويضنيها الفراق. وكما باحت بحبها، لم تر بدا من البوح بكل مكنونات قلبها إزاء «ابن زيدون» الذي ابتعد عنها، ففاض شعورها واشركت رواد ناديها الادبي بعواطفها، الذين اعجبوا بقصائد العتاب تماما كما اعجبوا بقصائد الحب الجيّاشة.

هكذا يظهر ان «ولادة»، المرأة الشاعرة، باحت علاقتها بابن زيدون، ودفعت رواد ناديها الى انتظار اخبارها، متحولة بذلك الى محور الجلسات الادبية والمحرك الاول لها، حولها يتحلق الشعراء واليها يوجهون الكثير من قصائدهم.

و«ولادة» التي تعرف كيف تحب وتعاتب وتحن، تعرف كيف تهجو. وكان هجاؤها مؤلما مقذعا، على الرغم من انه كان موجها في معظمه الى حبيبها الذي عادى الوزراء والحكام من اجلها. فكان هجاؤها له مثل لسعة السوط قوة وايلاما.

تعتبر ولادة من رائدات الشعر الاندلسي الحديث. كان صالونها زاخرا بالشعراء من هذا التيار، الا انها بقيت مجلية بينهم. وما لبثت ان تحولت الى مدرسة خاصة ومميزة في الشعر، نشأت على ادبها نساء كثيرات وشاعرات اخذن من الدعاية مأخذها، ومن ابرزهن «مُهْجَة القرطبة»، وكانت أشد اندفاعا في الشعر وجرأة من استاذتها. غير ان شعر «ولادة» لم يكن كله في متناول النساء لان في بعض قصائدها قسوة وقوة، الامر الذي جعلها في مصاف قصائد الرجال.

لم تكن «ولادة» تترك لعواطفها العنان، الا اذا قوبلت بما تستحق على نحو ما بدر عن حبيبها ابن زيدون، في ابياته السالفة التي تعتبر قمة الشعر الغزلي في الاندلس. وهي لا تتورع عن تجاهل نداءات القلب، عندما تشعر باختلال العلاقة، وتعاني جراح الكبرياء ملقية ابن زيدون من قلبها ومن حياتها.

يجمع المؤرخون على ان «ولادة» برغم ما اقدمت عليه لم تنزع الى ريبة او تنزلق الى مأثمة، وظلت طوال حياتها صاحبة قلم رفيع وذوق في الشعر والادب. لم تغلق مرة صالونها، وبقي قصرها الفسيح ملتقى الادباء والشعراء من الاعمار المختلفة والتيارات المتناقضة. وبقي صالونها محور الحركة الادبية في الاندلس،

وانطلاقة الشعراء الشباب والتيارات الجديدة، حتى وفاتها. لم تتزوج، بل نذرت نفسها للادب والشعر. عمرت طويلا. توفيف العام ٤٨٤ هـ.

المراجع

١ ـ اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام.

٢ ـ الامراء الامويون الشعراء في الاندلس.

٣ ـ المرأة العربية في جاهليتها واسلامها.

٤ ـ الدولة العربية في اسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة.

٥ ـ المرأة واثرها في الحياة العربية

هند بنت عتبة

إحدى ربات الحسن والجمال والرأي والعقل والفصاحة والبلاغة والادب والشعر والفروسية وعزة النفس. تلك هي هند بنت عتبة التي تركت في كل من هذه الصفات آثارا تناقلها الرواة وسجلتها كتب الادب والتاريخ، واضحت أمثولة تحتذي بها النساء في عصرها وفي كل عصر.

تعتبر هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس إحدى فرائد قريش رأيا، وحزما، وبعد همة، وحسن بيان. أبوها عتبة، سيد من سادات قريش، عرف بحكمته وسداد رأيه. كانت هند قد زوجت من حفص بن المغيرة أحد فتيان قريش. فعانت من سوء رأيه الكثير مما حملها على الافتراق عنه. أثرت هذه الحادثة على حياتها وعلى تفكيرها لدرجة انها قالت لابيها مرة: «إني امرأة ملكت أمري، فلا تزوجني رجلا حتى تعرضه علي». فقال لها: «لك ذلك».

وفاء لوعده، قال لها يوما: «قد خطبك رجلان من قومك ولست مسميا لك واحدا منهما حتى أصفه. اما الاول فيمتاز بالشرف الصميم والحسب الكريم وحسن الاجابة. إن تابعته تابعك، وإن ملت كان معك، تكتفين برأيك في ضعفه. وأما الآخر فيمتاز بالحسب الكريم، بدر أرومته وعز عشيرته يؤدب أهله ولا يؤدبونه، إن أتبعوه أسهل بهم وإن جانبوه توعر بهم؛ شديد الغيرة».

أجابت هند مبدية رأيها الواضح والسديد بالقول: «اما الاول فسيد مطيع لكريمته مؤات لها، شرط أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت خبائها. إطو ذكر هذا عني ولا تسمه لي. اما الآخر فبعل الحرة الكريمة، المدافع عن حريم عشيرته، الزائد عن كتيبتها المحامي عن حقيقتها. إني لموافقة عليه».

قال والدها: ذاك هو أبو سفيان بن حرب». قالت هند: «زوجه لي».

وهكذا حدث.

كانت هند تهوى «مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس»، وكان يبادلها الحب. الا انه كان فقيرا. فقالت له هند عندما طلب منها الزواج: «إن أهلي لا يزوجوني منك لأنك فقير الحال. فلو وفدت الى بعض الملوك علك تصيب مالا فتتزوجني». فرحل الى الحيرة قارعا باب النعمان بن المنذر، طالبا إعانته في مهر هند. وفي بلاط النعمان التقى «أبو سفيان بن حرب»، فسأله عن اخبار مكة. فبادره أبو سفيان الى القول: لم يحدث شيء في مكة الا أنني تزوجت هند بنت عتبة. فقال مسافر:

«إلا ان هندا اصبحت منك محرما

وأصبحت من ادنى حموّتها حما

وأصبحت كالمقمور جفن سلاحه

يقلب بالكفين قوسا وأسهما

ولم يطل الامر بمسافر حتى مات متحسرا على هند. فكان أحد العشاق الذين قتلهم الحب.

هند الشاعرة المجلية برزت موهبتها خصوصا في الشدائد والملمات.

ويكاد شعرها الذي تناقله الرواة يقتصر على الرثاء. وعلى هجاء الاعداء إبان المعارك والحروب التي شهدتها وشاركت في بعضها.

أبرز رثاء هند، هو الذي قالته يوم موقعة بدر، إذ قتل فيها عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. وصادف ذلك اليوم أن التقت الخنساء، وكان بلغها قول هذه الاخيرة: «أنا أعظم العرب مصيبة». فلما أصيبت هند بقتل اهلها قالت: «أنا أعظم من الخنساء مصيبة». ولما دنت هند من الخنساء بادرتها الاخيرة الى القول: «من انت يا أخية؟» فقالت لها هند: «أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة.

بلغني أنك تعاظمين العرب في مصيبتهم. فبم تعاظمينهم؟» قالت الخنساء: «بأبي عمرو بن الشريد وصخر ومعاوية إبني عمرو. وبم تعاظمينهم أنت؟» قالت: «بأبي عتبة بن ربيعة وأخي الوليد». قالت الخنساء: «أو سواءهم عندك؟» ثم أنشدت تقول:

«أبكي ابي عمرا بعين غزيرة

قليل اذا نام الخلي جحودها

وصنوي لا أنس معاوية الذي

له من سراة الحرتين وفودها

وصخرا ومن ذا مثل صخر اذا، اذا غدا

بسلهبه الابطال قبا يقودها

فذلك يا هند الرزية فاعلمي

ونيران حرب حين شب وقودها

أجابت هند:

«أبكي عميد الابطحين كليهما

وحاميهما من كل باغ يريدها

أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي

وشيبة والحامي الذمار وليدها

أولئك آل المجد من آل غالب

وفي العز منها حين ينمي عديدها»

وقالت تبكي أباها يوم بدر:

«أعيني جودا بدمع سرب

على خير خندف لم ينقلب

تداعى له رهطه غدوة

بنو هاشم وبنو المطلب

يذيقونه حد اسيافهم

يعلونه بعد ما قد عطب

يجرونه وعفير التراب

على وجهه عاريا قد سلب

وكان لنا جبلا راسيا

جميل المرأة كثير العشب

فأما بري فلم أعنه

فأوتي من خير ما يحتسب»

خلال احد غزواته اصطحب ابو سفيان هند وخمس عشرة امرأة. ولما بدأ الغزو قامت هند بنت عتبة ومعها النسوة، وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويحرضن. فقالت هند:

«إن تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق»

ثم وقفت والنسوة معها يمثلن بالقتلى. واعتلت بعد ذلك صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها:

«نحن جزيناكم بيوم بدر

والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لي من صبر

ولا أخي وعمه وبكري

شفيت نفسي وقضيت نذري

شفيت وحشي غليل صدري

حتى ترم أعظمي في قبري

فشكر وحشي على عمري»

بعد هذه المعركة على الفور أسلم أبو سفيان على يد النبي محمد. ولما رجع الى مكة المكرمة في ليلة الفتح صاح: «يا معشر قريش إني قد أسلمت فأسلموا، فان محمد أتاكم بما لا قبل لكم به».

وفي اليوم التالي، يوم الفتح، أسلمت هند.

من مآثر هند بنت عتبة أيضا ان عندما نهى عمر بن الخطاب ابا سفيان بن حرب عن رش باب منزله لئلا ينزلق الحجاج ولم يفعل قال له: «الم آمرك ان لا تفعل هذا؟» فسكت أبو سفيان على مضض.

فقال عمر: «الحمد لله الذي أراني أبا سفيان ببطحاء مكة أضربه فلا ينتصر وآمره فيأتمر». سمعته هند بنت عتبة فبادرته قائلة: «إحمده يا عمر، فإنك ان تحمده فقد أوتيت عظيما».

وعندما ولى عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان على الشام، خرج اليه معاوية. فقال أبو سفيان لهند:

«كيف ترين صار إبنك تابعا لابني» فقالت: «ان اضطرب حبل العرب فستعلم أين يقع ابنك مما يكون فيه ابني». وما لبث يزيد ان مات في الشام،. فولى عمر بن الخطاب معاوية مكانه». فقالت هند لمعاوية :«يا بني لقد استنهضك هذا الرجل، فاعمل بموافقته أحببت ذلك ام كرهته».

ولجت هند بنت عتبة باب التجارة على أثر طلاقها أبي سفيان، ولم تكن تملك المال الكافي. فلجأت الى عمر بن الخطاب وإقترضت من بيت المال أربعة آلاف درهم، وخرجت بها الى بلاد كلب فإشترت وباعت وازدهرت تجارتها، فكانت رائدة في هذا المجال، ولم تتوقف الا عندما بلغها أن أبا سفيان وعمرو بن أبي سفيان قد زارا معاوية. فهرعت اليه طالبة منه الاسراع في نجدة والده وشقيقه. فأرسل إلى أبي سفيان مائة دينار والكساء والطعام. ولما تسلمها بادر الى القول: «والله، إن هذا العطاء لم تغب عنه هند». فسارع الى الذهاب اليها والى شكرها. وكانت في تلك الاثناء بدأت تخسر في تجارتها وتتراجع فيها. عندها طلبت الى عمر ان يمدد موعد تسديد دينها. الا أنه رفض وقال لها: «لو كان مالي لتركته لك ولكنه مال المسلمين. فما كان منه الا أن سجن أبا سفيان، وأرسل الى هند رسولا يقول لها:

«يطلب منك أبو سفيان أن تأتيه بخرجين». وما لبث عمر أن أوتي بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم. فطرحهما عمر في بيت المال. فلما ولي عثمان ردهما اليه. فقال أبو سفيان: «ما كنت لآخذ مالا عابه علي عمر».

وشهدت هند معركة اليرموك، وحرضت على قتال الروم، وكانت لها الخطب الحماسية، نادت فيها معشر المسلمين بحمل السيوف ومساندة جيوشهم في قتالهم المرير مع الروم.

من اقوالها المأثورة التي سجلتها لها العصور التالية. حين بلغها نعي يزيد بن أبي سفيان، قال لها بعض المعزين: «إنا لنرجو ان يكون معاوية خلف يزيد». فقالت هند: «مثل معاوية لا يكون خلفا لاحد. فوالله لو جمعت العرب من اقطارها ثم رمي به فيها لخرج من اي اعراضها شاء». وقيل لها: «إن عاش معاوية ساد قومه». فقالت: «ثكلته إن لم يسد الا قومه».

ومن أقوالها ايضا انها عندما خرجت من مكة متوجهة الى الطائف ومعها معاوية صغيرا، رآه رجل من الاعراب فقال لها: «شدي يدك بهذا الغلام وأكرميه فإنه سيد كرام». فقالت هند: «بل ملك همام كبار عظام ضروب هام ومفيض انعام». ووصفت إبنها معاوية:

«إن بني معرق كريم

محبب في أهله حليم

ليس بفحاش ولا لئيم

ولا بطخرور ولا سئوم

صخر بني فهر به زعيم

لا يخلف الظن ولا يخيم».

من أقوالها أيضا: «المرأة غل ولا بد للعنف منه. فانظر من تضعه في عنقك». «إنما النساء أغلال فليختر الرجل غلا ليده».

توفيت هند في خلافة عمر بن الخطاب في اليوم الذي مات فيه أبو قحافة والد أبي بكر الصديق.

تلك هي هند بنت عتبة، رمز المرأة الكاملة الحضور في كل المناسبات. الحكيمة، الجريئة التي ساهمت الى حد بعيد في تغيير النظرة السائدة الى المرأة في العصور الاولى.

وبرهنت بمواقفها الشجاعة، قدرة المرأة على تحمل المسؤولية، وعلى مواجهة المحن مهما قست بعقل راجح وكلمة صائبة وفاعلية، فنفضت عنها غبار السلبية والانكفاء ووضعتها في الصف الامامي في مواجهة الحياة.

المراجع

١ـ الاغاني. تأليف أبي الفرج الاصبهاني (الجزء الرابع)

٢ـ المرأة العربية في جاهليتها واسلامها (الجزءان الاول والثاني). تأليف عبد الله عفيفي. دار الرائد العربي ـ بيروت.

٣ـ أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام (الجزء الخامس) تأليف عمر رضا كحاله. مؤسسة الرسالة بيروت.

هذا الكتاب

منذ بداية العصور، تمتعت المرأة بمكانة مرموقة، ولعبت أدواراً أساسية في الحياة الإجتماعية والسياسية والأدبية.
وكانت في معظم هذه الأمور مجلية وصاحبة مواقف بارزة، صنعت أمجاداً وبنت صروحاً ما تزال خالدة إلى اليوم.
هذا الكتاب يلقي الضوء على نماذج من تلك النساء اللواتي كتبن بمقدرتهن وابداعهن وحسهّن المرهف، صفحات مجيدة من تاريخ الأدب والسياسة والفن.
والغاية من وضع هذا الكتاب، ليس مجرد تعداد النساء البارازات في التاريخ العربي، وإنما إبراز القيمة الحضارية التي تمتعت بها المرأة في المجتمع العربي، من خلال نماذج عن النساء اللواتي لعبن دوراً بارزاً في الميادين المختلفة.